القرآن والتفسير العصري

« هذا بلاغٌ للناس »

- بيان
- مدخل تاريخي
- القرآن بين الفهم والتفسير
- لكيلا تضل المقاييس
- دفاعاً عن منطق عصرنا وكرامة عقولنا
- بيت العنكبوت
- بين الدراسة القرآنية ، والتفسير العصري.
- اللهم فاشهد

• هذا الفصل مستخلص من كتاب بهذا العنوان ، نشرته لي دار المعارف بالقاهرة ، سنة ١٩٧٠ .

« وإذا تُتلَى عليهم آياتُنا بَيِّنَاتٍ قال الذين لا يَرْجون لقاءنا ائتِ بقرآنٍ غير هـذا أو بَدِّله . قُـلْ مـا يكون لي أن أبدله من تِلقاءِ نفسي ؛ إنْ أتَّبع إلا ما يوحى إليَّ..»

• • •

فجأة . من حيث لا نتوقع ، ظهر تفسير عصري لكاتب صحفي ، مع ضجة إعلامية وحملة إعلانية عن حاجة الناس إلى تفسير جديد يلائم العصر ، ويُخرج للناس ما غاب عن النبي الأمي وقومه البدو ، من عصريات التكنولوجيا وحديثِ الطبيعيات والرياضيات وملاحة الفضاء .

وهذا كلام يبدو في ظاهره معقولاً ، يلقي إليه الناس أسماعهم ويبلغ منهم غاية الإقناع ، دون أن يتنبهوا إلى مزالقِه الخطرة التي تختلط فيها المرامي وتتشابه السبل . فتفضي إلى ضلالٍ بعيد .

وأول ما يشغلني من هذه القضية ، هو أن الدعوة إلى فهم القرآن بغير ما فهمه المبعوث به عليه الصلاة والسلام ، تسوق إلى الإقناع بالفكرة السّامّة التي تنأى بأنباء العصر عن مدرسة النبوة ،

ونتورط من هذا إلى المزلق الخطر ، يتسلل إلى عقول أبناء الأمة وضمائرهم ، فيرسخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم (ما لم يفهمه النبي الأمي من بيولوجيا وجيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجِنّة وتشريح وأنثروبولوجيا ..) فليس صالحاً لزماننا ولا جديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية أو يقبله منطقنا العصري .

هكذا باسم العصرية ، نغريهم بأن يرفضوا فهم كتاب الإسلام ،

بعقلية نبي الإسلام وصحابته ، ليفهموه في تفسير عصري من بدع هذا الزمان .

وباسم العلم ، نخايلهم بتأويلات مُحدثة ، تلوك ألفاظاً ساذجة صماء عن الذرة والإلكترون وتكنولوجيا السدود وبيولوجيا الحشرات وديناميكا الصلب وجيولوجيا القمر ...

وفي ضجيج هذه الألفاظ الطنانة وخلابة ما يقدمه التفسير العصرى من عطاء مَن كُشِفَتْ له حُجُبُ الغيب وأوتي من كل شيء علماً . تتعذر الرؤية الثاقبة التي تميز حقاً من باطل ، وعلماً من دجل ، وإيماناً من زخرف قول وبهرج بدعة ، ويفوتها أن تفصل بين منطق تفكير علمي وجرأة ادعاء وطبول إعلان ....

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ به عَنْ سَبِيلِ اللهِ بغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ، وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آياتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

والعلم فريضة ، والشهادة أمانة ، وكلمة الحق مسئولية وتكليف .

وفي مواجهة التيار الجائح ، أؤدي فريضة العلم وأمانة الشهادة ، لكيلا أبوء بلعنة إثم القلب .

• • •

في وعيي ومسمعي ، أصداء مماثلة من دعوة سابقة ، بَشّر بها في

أعقاب إحباط الثورة العرابية دعاةٌ أجانب ، لم يجرؤوا على التصدّي للقرآن مباشرةً ، فاتجهوا إلى لغةِ القرآن ليعزلوا الأمة عنه .

وخرجوا على الناس في أقنعة العصرية والعلمية والتقدمية ، ينادون بأن « هذه اللغة البدوية هي المسئولة عن تخلفنا العلمي والحضاري ، لأنها التي قتلت فينا موهبة الاختراع ، وقضت علينا بالجمود والعقم ، إذ نفكر بلغة أسلاف لنا عاشوا في عصر البداوة » .

وتصدّى ضمير الأمة لمواجهة تلك الدعوة الأجنبية بالتحدّي والرفض ، فكادت تذهب مع الريح ، لو لا أن حَمَلَ لواءها دعاةٌ من مثقفينا العصريين ، أنكروا هذه اللغة التي أورثتنا عقليتها القديمة المتحجرة المتبلدة . واشتدت حملة «الأستاذ سلامة موسى» على « الأحافير اللغوية التي ورثناها من مجتمع ديني زراعي إقطاعي ، فلغتنا الرسمية ليست لغة الديمقراطية والأوتومبيل والتليفزيون ، بل هي لغة القرآن وتقاليد العرب ، فلا أمل لنا في حياة صحيحة مع لغة خرساء تجهل نحو مائة علم وفن ، لا يمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا لغتنا إلى لغة أخرى » .

ولم تجد الدعوةُ إلى نبذ (لغة القرآن) صداها ، فكان أن عمد داعيةُ العصرية إلى محاولة جديدة لتطوير معجم لغتنا وأساليبها البدوية ، وقدم نماذجَ من (اللغة والبلاغة العصرية) المقترحة لا تبعد كثيراً عن المحاولة العصرية لتفسير القرآن . فتصوَّر ، أو صوِّر لنا ، أننا ندخل سباقَ العصر العلمي ، بمجرد أن نستعمل ألفاظ (التثاقل الروماتيزمي ، والطاقة الموطرية للكلمات . ومذهب التطور من أعظم الحمائر الاجتماعية ، والحرب قاطرة التاريخ . وتجرثمت الفكرة عندي ...)

وكما اشتدت حملته على حُماة الفصحى (لغـــة القرآن الموروثة من مجتمع ديني زراعي). ورأى فيهم أعداء التطور وكهان العصر (وهم تخصصوا في درس اللغة العربية . فإن تخصُّصَهم ضيّق آفاقَهم . فصاروا ينظرون إلى لغتنا كما لو كانت إحدى اللغات المتحجرة في المعابد . زد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لهم وضع اقتصادي ووجدان طبقي ، ينهضان على استبقاء العربية على جمودها الحاضر ، ولذلك يخشون التغيير ، ويرون فيه هجوماً على مصالحهم الاقتصادية ، ولكن يجب أن نذكر أن مصلحة الأمة يجب أن تعلو على مصالح أية طبقة فيها) [1]

أقول : كما اشتدت حملته على حماة الفصحى والمتخصصين في العربية . تشتد الحملة اليوم على احتكار أصحاب التخصص في الدراسات القرآنية . وتنشر مجلة (صباح الخير القاهرية) نداء لزميل من محرريها ، يدافع بنفس المنطق ، وأكاد أقول بنص الكلمات ، عن التفسير العصري الذي قدمه أحد زملائه الصحفيين في المجلة . ويرجو لي حين تصديت لرفض هذه الجرأة : (أن أفكر في هذه القضية بعقلية المفكر الحريص على مصلحة الأمة ، لا بعمامة المحرّف الذي يحرص على مستقبله الخاص، ويدافع عن اختصاصاته الرسمية التي يأكل منها خبزه).

• • •

والسؤال الخطير الذي تواجهنا به القضية هو :

---

١ القضية معروضة بمزيد تفصيل ، في كتابي (لغتنا والحياة) ط معهد الدراسات العربية ١٩٦٩ ، ودار المعارف ١٩٧٠ وفيه مراجع كل النصوص المنقولة ، في سياق هذا العرض .

هل نفهم القرآن كما بينه نبيُّ الإسلام ، أو كما يفهمه مفسر عصري من الصحفيين .. ندب نفسه لمنصب الفتيا في العقيدة وجعل من المجلة داراً عصرية لإفتاء المسلمين في الحلال والحرام . وأذاع أنه فهم من القرآن (أن جبريل يمكن أن ينزل في أي زمان ومكان . على أي نبي من أي عصر وبأية لغة)؟

فلننظر في هذا التفسير العصري ، من حيث هو نموذج ومثال لما يخوض فيه من يتكلمون في القرآن بغير علم ، وما يتعرض له الفهم الإسلامي من بدع التأويل بالرأي والهوى :

« مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً »

صدق الله العظيم

مَدخَلٌ تَاريخيّ

« إنّا نحنُ نزّلنا الذِكْرَ
وإنّا له لحافظون »

القرآن الكريم ختام رسالات الدين ،

وهو كتاب الإسلام عقيدة وشريعة ، ومنهاجاً وسلوكا .

والسنة تفصيل لما أجمل منه ، وبيان لأحكامه وكلماته ، كما فهمها المصطفى المبعوث به .

وسائر أصول الشريعة الإسلامية ترجع إليه أصلاً أوّل .

والمذاهب الفقهية تتعدد والأصلُ واحد .

والفرق الإسلامية تختلف ، محتكمة دائماً إلى نصوص من الكتاب والسنة.

ويتفاوت الناس في فهمهم للدين ،

وتتفاوت الأمم والأجيال والمذاهب في موقفها من الإسلام أو من التدين بوجه عام .

ويبقى القرآن ثابتاً لا يتغير ، موثّقاً لا يمسه أدنى تبديل ، ولا تتعلق به أدنى شبهة من تحريف .

• • •

من فجر المبعث بدأ توثيق القرآن الكريم :

يتلوه المصطفى على صحابته ، ويقرأونه عليه ، ويكتبه كُتّابٌ

منهم ، على ما تيسر من مواد الكتابة ، بإشراف المصطفى عليه الصلاة والسلام وتوجيهه .

كان هناك تنبهٌ مرهف ، إلى ما لحق التوراةَ من تزييف يهودٍ ، وما لحق الإنجيلَ من اختلافِ الطوائف المسيحية عليه ، نصاً وفهماً وتأويلا .

وإذ كان القرآن الكتابَ الخاتم للرسالات الدينية ، المصدق لما سبقه من كتُبها ، والمستصفى لما فيهـا من جوهر الدين الواحـد الحق ، فرضتْ الحاجةُ إليه ضرورةَ توثيقِ نصِّه ، لتجد فيه البشرية الكلمةَ الأخيرة للدين ، آمنةً من شبهة أي تحريف له أو تبديل .

لم يكتف المصطفى عليه الصلاة والسلام بأن يحفظه الصحابة في صدورهم ، بل ندب لكتابته عدداً من كُتابهم ، وكان هو الذي يحدد موضع كل آية من سورتها ، بتوجيه الوحي .

وتوفي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، والقرآن كله محفوظ في صدور الصحابة ، مدون على ما تيسر من الرقاع والعسب وألواح الأكتاف ورِقاق الحجارة ، وإن لم يجمعه كتاب واحد .

* * *

في عهد أبي بكر ، أول الخلفاء الراشدين ، كانت عملية جمع القرآن من صُحُفه المتفرقة ، بعد أن استشهد في حروبِ الردَّة عددٌ غير قليل من الصحابة حفظة القرآن ، بلغ في « يوم اليمامة » وحده نحو أربعمائة وخمسين صحابياً [1] .

---

١ صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن ـ مع تاريخ الطبري ، حوادث سنة ١١ هـ .

وكان «عمر بن الخطاب» هو الذي سعى سعيه لهذا الجمع : تحدث فيه إلى أمير المؤمنين أبي بكر الصديق ، فتردد رضى الله عنه ، تحرجاً من أن يفعل شيئاً لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل «عمر» يراجعه في الأمر حتى شرح الله صدره لذلك .

وتمّت عملية الجمع والعهد بالمصطفى قريب ، ونُدب لها «زيد بن ثابت» أحد كُتاب الوحي للرسول ، وحُفّاظ القرآن الثقات . وأُمر كلٌّ من لديه شيء من الصحف والرقاع أن يقدّمها إلى «زيد» فبلغ من حرصه وتحرجه ، أن كان لا يكتفي بمراجعة ما يتلقى من صحُف القرآن على حفظه ، بل بالغ في الاحتياط فلم يقبل من أحدٍ آية إلا أن يأتي بشاهدين على أنها كُتبت بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأُودِع القرآن مجموعاً في مصحف ، لدى أم المؤمنين «حفصة بنت عمر»

* * *

في عهد الخليفة الثالث «عثمان بن عفان» وُحّدت قراءة المصحف على حرفٍ واحد . ونُسِختْ منه نسخٌ وُزّعتْ على الأمصار الإسلامية ، مع الأمر بأن يُحرَقَ ما عداها من مصاحف ، بإقرار الصحابة ومشورتهم .

قضت بذلك ضرورةٌ طارئة لفتتْ إلى خطرٍ لم يكن في الحساب :

كان المسلمون من قبائل العرب قد أذن لهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، في قراءة القرآن على عدة وجوه ، تعرف في المصطلح القرآني بالأحرف السبعة ، يختلف فيها منطوقُ ألفاظٍ من القرآن دون معانيها ودلالتها ، تبعاً لاختلاف لهجات العرب أو لغاتهم ، على وجه التيسير لهم بالقراءة على ما تَطُوعُ به ألسنتُهم ، كأن يقرأ بعضهم : « كلما

أضاء لهم مشوا فيه »[1] ويقرؤها آخرون : سعوا فيه ، أو : مضوا فيه.

ولم يكن اختلاف الأحرف السبعة في كلمات من القرآن ، يثير أي قلق أو شبهة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفتيه أبي بكر وعمر . إذ كان المسلمون العرب يعلمون علم اليقين أن الأمر فيه لايعدو اختلاف لهجات القبائل في هذا اللفظ أو ذاك ، للمعنى الواحد .

لكن بوادر القلق لاحت بعد أن خرج العرب من جزيرتهم يحملون لواء الإسلام ، وكان أن فتحوا مصر والشام والعراق قبل أن يمضي ربع قرن على الهجرة ، وخالطوا شعوبها التي وجدت في سماحة الإسلام ويسره وإقراره حرية التدين ، ملاذاً من وطأة الفرس والرومان .

عندئذ خيف على الإسلام أن تسمع هذه الشعوب الطارئة على العربية ، قراءة المسلمين العرب للقرآن ، فيظنوا أنهم يختلفون فيه ، باختلاف هذه الأحرف المباح لهم قراءته بها ..

ثم اشتد القلق حين خرج مسلمو الشام والعراق ، مع كتائب الفاتحين ، إلى ما وراء النهر . وقد كان هؤلاء وهؤلاء ، تلقوا القرآن من صحابة تختلف قبائلهم . فحدث أن أهل الشام خطّأوا أهل العراق . وكذلك خطّأ العراقيون أهلَ الشام ، على مرأى ومسمع من شعوب البلاد التي امتدت إليها راية الإسلام .

روى «البخاري» في (صحيحه) أن الصحابي «حذيفة بن اليمان»

---

١ آية البقرة : ٢٠ – وأنظر مختلف الأقوال في الأحرف السبعة، في (البرهان في علوم القرآن) للزركشي ٢١٣/١ ط الحلبي ٩٥٧ . و (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي : ٥١/١ ط مصر ١٢٨٧ هـ .

خرج من جند الشام والعراق في فتح أرمينية وأذربيجان ، فأفزعه اختلافهم على قراءة القرآن ، فلما رجع قدم على الخليفة عثمان فقال له : « أدرك الأمة قبل أن يختلفوا على القرآن اختلاف اليهود والنصارى ».

وتتابعت النذر بأصداء هذا الاختلاف ووقْعه ، فكان أن استقر الرأي على ضرورة حسمه :

أرسل «عثمان» إلى أم المؤمنين «حفصة» يستأذنها في أن تُخرج إليه المصحفَ المجموعَ المودعَ لديها ، لينسخ منه نسخاً ثم يعيده إليها .

وندب أربعة من الصحابة برياسة «زيد بن ثابت» لكتابة المصحف بلغته القرشية التي قرأها بها المصطفى في العَرْضةِ الأخيرة للقرآن ، فلما فرغوا من كتابة المصحف الإمام ، نُسخت منه أربع نسخ — على المشهور — بقيت إحداها في المدينة ، وأرسلت الثلاث إلى الكوفة والبصرة والشام .

وسوَّغ هذا الإجراءَ ، تفاقمُ الخطر من اختلاف المسلمين على قراءته ، وقد زالت الحاجة التي سوّغت التيسير ، بإلف العرب للغة النبي القرشي ، لسان الدين والدولة ..

ويحتمل أن يكون بعض المسلمين قد تحرجوا من هذا الإجراء . لكن أولي الرأي والمشورة من الصحابة ، كانوا مع «عثمان» في ضرورة حسم الفتنة .

نقل «الزركشي» ما روي عن «الإمام علي» أنه قال :

« رحم الله أبا بكر ، هو أول من جمع المصحف بين اللوحين .

ولم يحتج الصحابة في أيامه وأيام عمر إلى جمعه على وجه ما جمعه عثمان ، لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان . ولقد وفق لأمر عظيم : رفع الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة »[1] .

• • •

بالمصحف الإمام ، لم يعد هناك أي خلاف إلا في طريقة القراءة للمصحف الواحد ، من حيث المسلك الصوتي وكيفية الأداء لما يحتمله رسم الكلمة . وهذه أيضاً ، لم تترك بغير ضابط ، بل عرفت الأمصار الإسلامية من ذلك الزمن المبكر أئمة من جيل التابعين يرجع إليهم الناس في إقراء القرآن ، على ما تلقوه من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الناس على رأس المائة الثانية للهجرة ، على قراءة «أبي عمرو بن العلاء» بالبصرة . «وحمزة وعاصم» بالكوفة ، «وابن عامر» بالشام ، «وابن كثير» بمكة ، «ونافع» بالمدينة : كلهم ممن اشتهرت إمامتهم وطال عمرهم في الإقراء ، وارتحل الناس إليهم من البلدان .

وعلى رأس المائة الثالثة ، اقتصر «أبو بكر بن مجاهد» — شيخ القراء في بغداد ، ت سنة ٣٢٤ هـ — على القراءات السبع المشهورة ، المنقولة عن الأئمة السبعة :

— عبدالله بن كثير المكي ، مولى القرشيين ، التابعي : توفي بمكة حوالى سنة ١٢٠ هـ .

---

١ البرهان في علوم القرآن : ٢٣٩/١ .

– نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني ، توفي بالمدينة سنة١٦٩هـ.

– عبدالله بن عامر بن يزيد اليحصبي ، قاضي دمشق : من كبار التابعين ، توفي حوالى سنة ١١٨ هـ .

– أبو عمرو بن العلاء البصري ، توفي سنة ١٥٤ هـ .

– عاصم بن أبي النّجود ، أبو بكر الأسدي الكوفي ، توفي بالكوفة سنة سبع أو ثمان وعشرين ومائة .

– حمزة بن حبيب الزيات الكوفي ، مولى بني تيم ، توفي حوالى سنة ١٥٦ هـ .

– أبو علي بن حمزة الكسائي الكوفي ، مولى بني أسد [1] .

• • •

وتنقلت القراءات السبع المتفق عليها مع الزمن بالتواتر ، متصلة الإسناد طبقة عن طبقة ، ومهما تختلف في طرق الأداء فإنها تلتقي في : اتصال اسنادها ، وموافقتها لغة العرب ، ورسمَ المصحف العثماني الإمام .

وتتابعت أجيال من المحققين على خدمة القراءات ، وصُنفت كتب في نقط المصاحف ، وفي ضوابط الوقف وسائر قواعد التجويد ، على القراءات السبع التي يُقرأ بها القرآنُ اليومَ في البلاد الإسلامية ، على النحو الذي قرأه به الأئمة السبعة بالإسنادِ المتصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام

---

١ راجع تراجم القراء السبعة الأئمة ، في كتاب طبقات القراء لابن الأثير الجزري .

وبهذا التوثيق الذي لا يعرف له التاريخ مثيلا ، سُدَّت كلُّ الذرائع التي يحتمل أن يصل إلى القرآن منها أي تغيير أو تحريف : نصاً ورسماً وقراءة وتجويدا .

• • •

لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى التفسير ، من حيث كان مجالاً لاختلاف الفهم باختلاف الظروف والأحوال .

فعلى المدى الطويل ، خضع فهم المسلمين للقرآن لمؤثرات شتى منها ما قضت به طبيعة الحياة مع اتساع العالم الإسلامي وظروف شعوبه وأوضاع مجتمعاته .

ومؤثرات أخرى فرضتها عوامل سياسية ومذهبية لم تجد سبيلاً إلى السيطرة على المسلمين ، غير توجيه فهمهم لكتاب دينهم ، وإخضاعه للأهواء والعصبيات . فكان أن تسللت إلى التفسير القرآني عناصر دخيلة وشوائب مقحمة ، أخذت قوتها حيناً من إلحاح التسلط على الوجدان الديني للجماهير ، وحيناً من فتنة الاستهواء وخلابة البدع وسحر التمويه . وتُتْرَك للزمن ، يعطيها من سلطان الإلف وحماسة الوجدان العام ، حرمةً تتحدى كلَّ محاولة لتحرير الفهم القرآني من تلك الشوائب الدخيلة والبدع المقحمة والمدسوسات الخبيثة .

وما كان بالأمس بدعة منكرة ، يمكن أن يصبر مع الزمن أشبه بالعقيدة .

وما يَريبُنا اليوم من شطط التأويل ومحدثات البدع ، يمكن أن يتسلط

على الوجدان الشعبي بالسحر والتخييل ، فلا يلبث أن يرسخ ويتأصل ، ويغدو التصدي لتصحيحه مجازفة خطرة ...

• • •

وجذور المأساة غائرة بعيدة . لا يخطىء التاريخ أن يلمح بذرتها الخبيثة فيما أقحم اليهود على التفسير القرآني من عناصر إسرائيلية :

مع التحول التاريخي لحركة الدعوة الإسلامية من أم القرى إلى المدينة ، واجه الإسلام عصاباتِ يهود الناشبة في مستعمراتها بشمـــــال الحجاز .

ومن عام الهجرة بدأ الجدل في القرآن ، يتولاه أحبار يهود الذين تمت تعبئتهم لإعنات نبي الإسلام والدخول معه في جدل عقيم دون أن يواجهوه بحرب معلنة ، وقد أمّنهم على دينهم وعباداتهم وأموالهم وأنفسهم .

ثم كان أن تعوذ نفر منهم بالإسلام ، ودخلوا فيه ليكيدوا له [1] وأخذ الذين أسلموا منهم ، مكانهم في المجتمع الإسلامي ، لا يستطيع أحد أن ينفيهم عنه وقد شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

والذين أدركوا منهم نبي الإسلام وبايعوه ، عُدُّوا من الصحابة الذين ترجع إليهم الأمة في أمور دينها ، فهم تراجمة القرآن للأجيال التي لم تدرك عصر المبعث ، وهم رُواة السنة : المصدر الثاني للشريعة الإسلامية.

• • •

---

١ ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢/١٧٤ ط الحلبي .

ومن الجيل الأول للذين أسلموا من يهود ، بدأت تدخل الفهمَ الإسلامي عناصرُ من تأويلاتهم وشروحهم ، عُرِفت في المصطلح باسم الإسرائيليات » .

وكانت الثغرة التي تسللت منها هذه العناصر ، أن القرآن يُجمل غالباً ، قصصَ القرون الخالية ، تركيزاً على موضع العبرة منها وجوهر الحادث .

وفيه كذلك آياتٌ عن غيبيات ، ما كان المسلمون الأولون ليخوضوا فيها ، ولا علم لهم بشيء منها إلا ما جاء في القرآن عنها .

وهؤلاء اليهود أهل كتاب ...

وقد تضخم تراثهم من المقولات الدينية .

وإذ كان الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، لم يستَرب عامة المسلمين فيمن أسلموا من يهود ، وألقوا إليهم أسماعهم وهم يتفننون في سرد حكايات جذابة وتفصيلات مثيرة ، تفسيراً لما اكتفى القرآن بالإشارة إليه . وغلب الوهم ، بأنها من المرويات لأهل الكتاب ، دون تنبه إلى ما دُسَّ عليها من أسطوريات شُحنت بها العقلية الإسرائيلية في تيهها القديم وتشردها الطويل .

ولم يحل دون رواج الإسرائيليات ، أن القرآن شهد على يهود بتقولهم على الله وتحريفهم كلماته تعالى عن مواضعها .

ومن أوائل العهد المدني ، حيث خالط اليهودُ المهاجرين والأنصار ، تتابعت آيات القرآن تحذر المؤمنين من شر هؤلاء المزيفين الأشرار :

« أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ »[1]

(البقرة : ٧٨)

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

(آل عمران : ٧٨)

كما لم يَحلُ دون رواج هذه الإسرائيليات ، ما روُي عن المصطفى صلى الله عليه وسلم من حديثٍ في أقوال أهل الكتاب وموقف المسلمين منها : يسمعونها ولا يعملون بها . كما حذر عليه الصلاة والسلام أمته من قوم « يقرءون القرآن ينثرونه نثر الدقل ، يتأولونه على غير وجهه»

وعُذر العامة أن الإسلام فرض عليهم الإيمان بالرسالات الدينية قبله ، وأكد القرآن أنه مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل . وحديث

---

(١) أنظر معها آيات : النساء ٤٦ ، والمائدة ١٣ ، ٤١

الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليس فيه نهيٌ عن سماع أقوال أهل الكتاب ، وإنما النهي عن العمل بها .

وهيهات أن يميز عامة المسلمين ، فيما يسمعون من إسرائيليات ، بين ما هو أصل التوراة وما هو من تحريف يهود وأسطوريات ميراثهم من التيه والتشرد والحقد والشر .

ودخلت هذه الإسرائيليات في كتب التفسير ، مرويةً عن صحابة يتحرج المسلم من اتهامهم .

وكان لها من موضعها مع الآيات القرآنية ، في كتب التفسير ،حرمة ومهابة . وبمضي الزمن ، نشبت في فهم المسلمين للقرآن ، فما استطاعوا أن يتحرروا منها حتى اليوم .

• • •

هنا وقفة لا بد منها عند هذه الإسرائيليات :

فلقد يبدو لكثير منا أنه يكفي عرضُها على ما نجد من نسخ التوراة ، لنميز ما نأخذ منها وما ندع .

يَعنون : أن نقبل تفسير القرآن بالإسرائيليات التي نجدها في التوراة ، ونتخلص مما عداها من مدسوسات .

وحجتهم في هذا ، أن القرآن مصدق للتوراة والإنجيل ، بصريح آياته المحكمات .

وأقول : إنه مع الفرض جدلاً بأن التوراة وصلت إلينا دون تحريف ، فقد بقي أن الإسلام في تصديقه للأديان قبله ، استصفى منها ما رأى

للبشرية المتدينة أن تصير إليه ، فيما هو من جوهر العقيدة ومناط الاعتبار.

والذي استبقاه منها موجود في القرآن .

والذي نسخه مما جاء فيه ، لا يحل أن ندخله على تفسير القرآن ، وإنما يُعنى به من يشتغلون بتاريخ الأديان والدرس المقارن بينها .

ولمن شاء أن يقرأ أقوال أهل الكتاب في شروحهم للتوراة ؛ ولكن ليس لأحد أن يفسر بها القرآن ، لأنه بهذا يقحم عليه ما لم يتعلق بذكره .

فإذا شق علينا أن نفهم أن الدين في ختام رسالاته قد خاطب البشرية بأسلوب غير الذي كان يلائمها في عصور خلتْ ، فإن لنا أن نقرر أن المنهج العلمي ينكر أن نفسر النص بما لا يحتمله لفظه وسياقه .

ومهما يختلف إدراكنا للحكمة العليا في العدول عن شيء ورد في كتاب نزل قبل القرآن بقرون ذات عدد ، فما ينبغي أن نقحم على كتاب الإسلام ما لم يأت فيه ، وكأننا بذلك نفرط في أمانة نصه المحكَم ، ونهدر الجهود التاريخية التي بذلت لصيانته بالتوثيق من أي تحريف أو تغيير .

وذلك ما غاب عن أجيال منا ، ظلت تتلقى الإسرائيليات المقحمة على التفسير ، وتفهم بها كتاب الإسلام .

• • •

هذه فكرة موجزة عن الإسرائيليات التي دسها يهود على الفهم الإسلامي للقرآن ، من عصر مبكر .

بعدها جاءت العصبيات السياسية والمذهبية ، فتدخلت في فهم المسلمين للقرآن بما يساير أهواءها .

كما جاءت الفرق الكلامية فأضافت إلى كتب التفسير تأويلها لما تحتج به من آيات القرآن ، في الخصومة الجدلية العنيفة التي احتدمت بين المتكلمين ...

إلى جانب ما داخل الفهمَ الإسلامي للقرآن ، من تأويلاتٍ لمفسرين من الأعاجم المسلمين ، صحَّ لهم علمُ العربية ، لغة القرآن ، وفاتهم ذوقها النقي وبيانها الأصيل .

والمتصلون بالدراسات القرآنية ، يعرفون ما حُشيت به كتب التفسير من سرائيليات حاول بها اليهود ، ممن دخلوا في الإسلام طوعاً أو كرهاً ، تطعيمَ الفهم الإسلامي للقرآن بعناصر إسرائيلية . ويعرفون كذلك ما أقحم عليه من تأويلات جاءت بها الظروفَ الدينية والسياسية والتاريخية التي تعرض لها المجتمع الإسلامي ، وتفاوت بها المفسرون تبعاً لتباينِ أذواقهم واختلاف عقلياتهم وأوضاع مجتمعاتهم وأنماط شخصياتهم ، في ذلك العالم الإسلامي الواسع الذي امتدَّ من أقصى المشرق ، إلى أقصى المغرب ، وتقاسمته ألوان من عصبيات مذهبية وسياسية وإقليمية ، فاقتضى هذا بطبيعة الحال ، أن يتوارد على القرآن مُفسرون من أنماطٍ شتى وعصبيات مختلفة ...

وألّف في التفسير — كما قال الجلال السيوطي : « خلائق اختصروا الأسانيدَ — التي ترفع المروياتِ فيه إلى الأئمة — ونقلوا الأقوال تترى . فدخل من هنا الدخيلُ والتبس الصحيح بالعليل . ثم صار كل من يصح له قولٌ يورده ، ومن يخطر بباله شيء يعتمده . ثم يَنْقلُ ذلك عنه مَن

يجيء بعده ، ظانّاً أن له أصلاً ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومَن يُرجَع إليهم في التفسير »[1] .

• • •

١ الإتقان في علوم القرآن : ٢/٢٢٦ .

هل يفهم من هذا ، أن تفسير القرآن كان مباحاً لكل هؤلاء ، من غير قيد أو شرط ؟

كلا ، بل كانت هناك شروط ملتزمة ، لا يتهاون العلماء في ضرورتها للمفسر . ولا يجرؤ أحد على التصدي للتفسير دون استيفائها .

الدراية بعلوم العربية ، كانت الشرط الأول !

وهو شرط لم تكن هناك حاجة إلى تقريره في العصر الأول ، والقرآن في بيئة العربية الفصحى .

ثم مع الفتوح الكبرى ، خرج المسلمون من بلاد العرب ، واستقروا في الأقطار التي فتحها الإسلام ، وخالطوا شعوبها ، فبعدت الفصحى عن بيئتها الأولى وتعرضت لما قضت به طبيعة الظروف وسنن الاجتماع اللغوي ، من شوائب العجمة واختلاط الألسن . وظهرت آثار من ذلك كله على جيل المولّدين من العرب الذين ولدوا في الأقطار المفتوحة .

وتعربت الشعوب الداخلة في الإسلام ، فاتسع المجال اللغوي للعربية ، في القرن الأول للهجرة ، من المشرق الآسيوني في خراسان وما وراء النهر ، إلى المغرب الإفريقي حتى ساحل المحيط الأطلسي .

ومن حيث وقف التاريخ مبهوراً يرصد حركة التحول اللغوي لهذه

الشعوب . ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التي عصيت من قبل على الغزو اللغوي للفرس واليونان والرومان . وقف حملةُ القرآن يشفقون على لغته من هذه المخالطة المباشرة ، ويرهفون سمعهم لالتقاط ما لم يكن منه بد ، من شوائب العجمة وعثرات اللحن .

واتجهت الجهودَ ، لحماية لغة الإسلام ديناً ودولة . إلى جمع تراث الفصحى الأصيل وتدوينه ، وعكف عليه العلماء ، من القرن الثاني للهجرة ، يستخلصون منه للفصحى معجم ألفاظها ، ويستنبطون بالاستقراء والقياس ، قواعد نحوها وتصرفها واشتقاقها ، وخصائص أساليبها في التعبير والبيان [1] .

وكانت علوم العربية صعبة حتى على أهلها .

وعلى مرِّ القرون ، تضخم رصيدُها من القواعد والمذاهب والمتون والشروح ، وصار الفقهُ بها أمراً عسيراً لا يُدرك إلا بالدراسة المتخصصة الطويلة ، والجهد المضني .

وكانت العاميات إلى جانبها ، تقوم بحاجات الحياة اليومية ، فتغني العامة عن طلبِ علوم الفصحى ، وهي العلوم التي وضعت أساساً لخدمة القرآن ، وفهمِه بها .

من هنا ، كانت الدراية بهذه العلوم لغة وبياناً ، من أول ما اشترطه علماؤنا في المفسر .

---

١ تفصيل هذا ، في كتابي (لغتنا والحياة) : العربية في أقطارها الجديدة ، ص ٥٣ : ٨٣ ط معهد الدراسات العربية ١٩٦٩ .

ما من كتاب في علوم القرآن ، لم ينص على أن يكون المفسر عالماً بالعربية .

بل إنهم أدخلوا علومَ العربية أصالة ، في علوم القرآن ،على نحو ما تجده في كتابَي « البرهان في علوم القرآن ، والإتقان في علوم القرآن ».

وكل الذين عرضوا لقضية الإعجاز ، أجمعوا على أن فقه العربية لغة وبياناً . هو أداة النظر في الإعجاز .

ويمكن القول بأن جمهرة الكتب المؤلفة في مفردات القرآن ، وأقسامه، وإعرابه ، ومجازه ، وبديعه ، ودلائل إعجازه . تأخذ مكانَها في المكتبة اللغوية والبلاغية .

وتأتي مع علوم العربية ، سائرُ علوم القرآن مما لا يُتصور أن يتصدى مفسرٌ لتأويله ، وهو يجهل مثلاً أسباب نزوله ، والمحكم والمتشابه ، وقراءاته ، ورسم المصحف ...

ثم هو في حاجة كذلك إلى دراية بعلوم الحديث من حيث كانت السنة مفسرة للقرآن ومفصلة لما أجمِل منه ، مع دراية كذلك بعلم التوحيد وأصول الدين ، وأحكام الفقه المستنبطة من الكتاب والسنة .

ولا يستغني المفسر بعد هذا كله عن معرفة بالفرق الإسلامية واتصال بكتبِ الكلام ، وعلمٍ بتاريخ الإسلام .

• • •

والمفسرون من السلف ، كانوا من علماء العربية والإسلام ، تجد

أسماءهم في طبقات المفسرين ، وتجدها كذلك في طبقات اللغويين والنحاة . أو المحدثين والفقهاء . أو المؤرخين والمتكلمين .

وما تصدى للتفسير من أصحاب المذاهب والفرق الإسلامية ، إلا أرسخهم قدماً في علوم العربية والإسلام ، وأبرعهم في تخريج الأقوال ومناظرة خصوم المذهب . حتى ليشق على غير الخاصة أن يهتدوا إلى مسارب التأويل المشتط في تفاسيرهم ، فيقول شيخ الإسلام (الإمام البلقيني) إنه استخرج الاعتزال من (تفسير الكشاف للزمخشري)، بالمناقيش !

وليسوا مع ذلك سواء . منهم من اعتسف التأويل عن حسن قصد ، ومنهم من تورط في التعصب لمذهبه .

* * *

كيف احتمل الإسلام كلَّ هاتيك الشوائب التي شابت فهمَ أمته لكتاب دينها ، دون أن يخبو فيها نوره ؟

الواقع أن الوجدان الديني للأمة ، ظل يقاوم هذه المدسوسات والمقحمات ، بصفاء الإيمان وإلهام البصيرة .

تهديها فطرتها المتصلة بالقرآن الكريم اتصالاً مباشراً ، تتلوه أو يتلى عليها مصبحة ممسية ، في الحضر والبادية ، فتجد فيه عاصماً من الزيغ والضلال ..

ومهما تكن العصور المتطاولة قد باعدت بين القرآن وتفسيره ، لم يخلُ أيُّ عصرٍ من صوتٍ يحذر الأمة من مدسوسات الإسرائيليات ومقحمات البدع والأهواء .

وكما شهد التاريخ محاولات الكيد للإسلام بعزل أمته عن نوره هداه ، شهد الأئمةَ الأبرارَ ساهرين على حراسة لواء الأمة .

وتتابعوا على حمل اللواء جيلاً بعد جيل ، عن يقين بأن هذا القرآن هو مناط وجود الأمة ودليل سيرها وسُراها .

• • •

وقد تلقى عصرنا هذا التراث ، بكلِّ ما فيه من شوائب مقحمة وبذور خبيثة ، وكل ما فيه من رصيد قادة الفكر الإسلامي وحملة لواء القرآن .

وكان عليه أن يميز الخبيثَ من الطيب ، وأن يحرر الفهم الإسلامي مما داخله من مدسوسات ، ويحرره كذلك من سموم طائفة من متعصبي

المستشرقين أضلهم الحقد فخانوا المنهج العلمي الذي ادعوا فينا أنهم حَمَلَته، وجعلوا من خدمة تراث الإسلام ذريعة لاستهوائنا، فتسلطوا على فئة منا بفتنة العلمية، فكانوا هم الذين نقلوا سمومهم إلى مناخنا الفكري[1].

١ اقرأ في هذا الموضوع: (إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث) للمفكر الجزائري مالك بن نبي – مكتبة عمار بالقاهرة.
ومعه كتابي (تراثنا بين ماض وحاضر) ط معهد الدراسات العربية ١٩٦٨، ودار المعارف ١٩٦٩.

مع الغزو الاستعماري في مطلع العصر الحديث . غشِينا من صدمة التفوق المادي للحضارة الغربية ما يشبه الدوار .

وفي أخذة الصدمة ، أرهقتْنا عقدةُ الشعور بالنقص التي سهر الاستعمار على ترسيخها فينا ، فتصور بعضُنا ألا شفاءَ منها إلابالانسلاخ من جذور أصالتنا والانتماء إلى الغرب المتفوق الظافر .

وفي الطرف المقابل ، كان فريق منا يتشبث بكل مخلفات الماضي ، في رجعية ذاهلة عن سير الزمن وتحديات العصر . ووجد هؤلاء وهؤلاء ، ما يرهف إحساسهم بالعقدة ، في مخدرات الغزو الفكري :

المستغربون وجدوا ملاذهم فيما تسلط عليهم من إلحاح فكريوثقافي ، أقنعهم بأن شرقيتنا هي سر تخلفنا ، وأن ميراثنا الروحي هو المسئول عن جمودنا ومحنتنا .

والآخرون وجدوا مخدر عقدتهم في اجترار أمجاد ماضينا التي تغنى بها بعض المستشرقين ، فاطمأنوا إلى أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان !

وحين كانت القضية الكبرى المطروحة على الأمة في صدمتها بالتفوق المادي لحضارة الغرب الحديث ، هي أن تأخذ بأسباب العلم لتستأنف خطاها من حيث وصلت إليه في العصر القيادي للحضارة الإسلامية ، ظهرت محاولة ساذجة لتفسير القرآن تفسيراً علمانياً نطمئن به إلى أننا سبقنا عصرنا إلى كلِّ ما يتطاول به الغرب علينا من علوم حديثة !

وقدم «الشيخ طنطاوي جوهري» تفسيره (الجواهر) فوجدت فيه الجماهير

ما يريحها من مهانة الإحساس الباهظ بالتخلف [1]

ثم لم تكد تفيق من أثر هذا المخدر بجهود رواد اليقظة لإصلاح الحياة بالدين ، حتى بغتها إثر معارك التحرير من مهانة الاستعمار ، صدمةُ الاجتياح الصهيوني لأقدس حرماتنا ، فكشفت عن ثغرات الخلل والتصدع في منطقِ تفكيرنا ومنهج حياتنا .

وصارت القضية المطروحة علينـــا ، هي قضية وجود ومصير ... والذئاب الصهيونية تسرح في حمانا بوطأة قرصان وخيلاء مستعمر .

والوجه القبيح يسفر عن قناعه ، ويتمادى في قحته وطغيانه ، متكئاً على تفوقه التكنولوجي وأجهزته الجهنمية .

وخطوات التجول على سطح القمر توقظ النيام .

و «مارينر» محلقّة في مدارها حول المرّيخ ،

وإذ تحاول الأمة أن تستوعب أبعاد الموقف ، وصولاً إلى طريق النجاة ، ظهر أن الموقع الفكري ، من أخطر مواقع الميدان .

وكان على قادة الفكر الإسلامي أن يأخذوا أماكنهم في هذا الموقع الخطر ، ليضيئوا مسراها بنور الكتاب الذي حققت به وجودها وحمت بقاءها ، ويقدموا لها من قِيَمه الخالدة ما تواجه به تحديات العصر العلمي ، دون أن يمزقها صراع مفتعل بين العقيدة والعلم ، ودون أن يشغلها جدل عقيم في قيمةِ الكتاب الذي جعل الإيمان بالعلم عقيدة

---

١ لمزيد بيان ، اقرأ : (إنتاج المستشرقين) لمالك بن نبي .

وديناً ، وكان لواءَ الحضارة الإسلامية في دورها القيادي بالعصر الوسيط.

وكان الظن ألا مجال لمخدرٍ في هدير العصر ودوامة المعركة . وإذا بمفسرين عصريين لا درايـــة لهم بعلوم العربيـــة والقرآن ، ولا بعلوم العصر . يتسللون بالمخدر إلى الميدان ، فيتسلطون على الجماهير بتفاسير عصرية تجذب أسماعهم بكلام خلاب عن سبق القرآن إلى نظريات الرياضيات وعلوم البيولوجيـــا والجيولوجيا وارتيـــاد الفضاء وغزو القمر ، فما علينا مثلاً أن ترتاد روسيا مجاهل الفضاء ، وأن تتجول «لوناخود» على سطح القمر . وأن تنطلق « سيوز » في رحلتها الجريئة واقتحامها الظافر ، وعندنا مفسر عصري يقدم لنا من القرآن ، كلَّ علوم الدنيا ، ويضيف إليها علم الغيب والحياة الآخرة !

• • •

إن تحديات عصرنا ، قومية وحضارية ، هي التي تضعنا أمام ما يروج فينا من تأويلات عصرية للقرآن ، لنحدد موقف الدين والعلم من هذه التأويلات التي تقتحم الغيب وتفتي الناس في العلم والدين بغير علم ، وتلهيهم بأنباء الجن والشياطين والملائكة ، وتشدهم من صميم معركة البقاء والمصير ، إلى هذه المعركة الجانبية بجدّها المثار حول فهم القرآن وتفسيره .

وبقدر ما تقسو هذه التحديات ، تشتدّ حاجتنا إلى تأمين هذا الموقع الفكري الخطر ، من حيث لا نستطيع أن نسير مع حركة الزمن ودفع التقدم وحتمية التطور ، إذا ظل تأويل كتابنا الأكبر مباحاً لكل ذي هوى أو رأي . يلوي نصوصه ليّاً ، لكي تلبي حاجة في نفسه .

ومن حيث لا يُتصور ، وموجةُ الإلحاد في مدّها الجامح ، والصراع

المذهبي في ذروة احتدامه . أن يُترك تفسيرُ كتاب الإسلام بغير ضوابط مقررة ملتزمة ، يعرف بها إنسانُ العصر كلمة الدين في ختام رسالاته ، ويطمئن قلبه وعقله وضميره إلى حقيقة هذا الدين وقيمة عطائه ، فينجو من الحيرة التي تنهكه وتضنيه ، إذ يرى تأويل القرآن في مهب أعاصير الأهواء وخضم الفتنة : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » صدق الله العظيم .

القرآن الكريم
بين الفهم والتفسير

« لا أُوتَى برجلٍ غير عالم بلغة العرب ،
يُفسِّر كتابَ اللهِ ، إلا جعلتُهُ نكالاً »
الإمام مالك بن أنس

---

* هذا المقال وما يليه ، نشرت خلاصة منه بأهرام الجمعة في شهري مارس وابريل من سنة ١٩٧٠ ، رداً لما نشر في مجلة صباح الخير من مقالات بعنوان محاولة « تفسير عصري للقرآن » .

وقد تصور الدكتور الصحفي المفسر ، أنه يعفي نفسه من مؤاخذته على التصدي للتفسير بغير علم ، بمجرد تغيير العنوان ، فجمع مقالات تفسيره في كتاب مطبوع بعنوان : «القرآن ، محاولة لفهم عصري للقرآن » .

وغاب عنه أن العبرة بالموضوع الذي تناوله تناول مفسر عالم ، يؤول النصوص ويفتي في الدين ، وليس تناول صحافي من كتاب القصص ، يعرض تصوراته الدينية ويتخيل ما وراء الغيب .

يبدو أننا في حاجة إلى أننا نضع الحدود الفاصلة بين ما يباح وما لا يباح من تأويل كلمات الله في كتاب الإسلام ...

بين حقّ كل إنسان في أن يفهم القرآن لنفسه ، وبين حرمة تفسيره للناس لا تبيحه لغير ذوي الدراية به ...

بعد أن شُغلت الأمةُ بهذا الخلاف الطارىء ، وقيل فيما قيل إن التفسير مباح لكل من يشاء .

والقرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً ، يسمعه كل مسلم فيتمثل معانيه ومراميه ، على قدر استطاعته ، وفي حدود فهمه .

بل هو وراء ذلك كتاب الناس جميعاً ، المتدينين والملحدين ، من حيث يجدون فيه الكلمة الأخيرة للرسالات الدينية . ومن حيث لا يعرف التاريخ كتاباً مثله ، غيّر من حياة البشرية ووجّه تاريخها . فمن حق كلّ إنسان أن يلتمس منه ما يلبي حاجته إلى المعرفة ، ويقدم له عطاء الدين في ختام رسالاته .

وإذا كان المستشرقون ، من المسيحيين واليهود والملاحدة ، قد عكفوا على فهم هذا القرآن وقدموا منه لقومهم ما فهموه من كتاب العقيدة الإسلامية ، ومناط الوحدة الجامعة لأمتها في دينها وعقليتها المشتركة ومزاجها العـــــام .

وإذا كانوا كذلك ما يزالون حتى اليوم يعكفون على دراسة كل تفسير جديد ليتبينوا متّجه الفهم الإسلامي للقرآن .

فالمسلمون أوْلى بأن يتقرر حقهم ، بل واجبهم ، في أن يفهموه على قدر استطاعتهم ، وأن يعرضوا عليه ما يشغلهم من قضايا الزمان .

وليس من الضروري أن يكونوا على دراية بعلوم الإسلام وأسرار لغة القرآن ، بل إن عامة المسلمين لهم مثل هذا الحق ، حين يصغون إلى ما يتلى عليهم من آيات القرآن الكريم ، فيفهمها كل منهم في حدود إدراكه ومعارفه « وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً »

ومحاولة فهم القرآن ، لا يمكن أن تتعرض لإنكارٍ أو رفضٍ ، إذا كانت من قبيل التماس عطائه المباح لخلق الله .

على أن تبقى في نطاقها الخاص المحدود ، فلا تُتخذ ذريعة إلى انتحال تفسيره للناس ، والجرأة عليه ، بغير ضابط ولا قيد .

ومنذ بدأ تاريخ الإسلام ، كان المسلمون يفهمون من كتاب دينهم ، ما يلبي حاجات وجودهم ويهدي مسراهم حيثما اعتكر الليل وادلهمّ الظلام .

وبقدر ما فهموا منه ووعوا ، قاوموا عوادي الضلال وذرائع الضياع . ومهما يكن مستوى فهمهم ، فما أعوزهم أن يدركوا منه ما يحفظ عليهم كرامة إنسانيتهم ، وما يرفضون به البغي والطغيان ، والعبودية لغير خالقهم وحده .

وتتابع الأجيال ، كلُّ جيل خُلق لزمان غير زمان سلفه وخلفه ، وعطاءُ القرآن غير محظور ولا مقطوع ، وتظل قيمه ومثله العليا مطمح الإنسانية على تفاوت الأجيال ومرّ الزمان ، تعرج إليها على مراقي تطورهـا وطموحها .

• • •

لكن الأمر يختلف تماماً إذا اختلط فهمُ القرآن بتفسيره ، فيتصور بعضهم أن إباحة فهمِه لكل الناس ، تعني إباحة تفسيره دون قيد أو شرط..

لأن التفسير يقدم للناس فهم المفسِّر للنص القرآني . وغير متصور أن يتصدى لتفسير أي نص ، مَن لا دراية له بأسرار لغته وفقه سياقه ودلالاته .

وهذا من المسلّمات البديهية في النصوص بوجه عام : يفهمها من شاء كيفما شاء ، لكن تفسيرها للناس والفتيا بها ، مقصور على ذوي الفقه بها والاختصاص .

وهؤلاء أنفسهم ، يتفاوتون بقدر درايتهم بأسرار النص .

نحن المثقفين مثلاً ، نستطيع أن نقرأ أي نص قانوني ، وأن نفهمه بالقدر الذي تتيحه لنا عقليتنا ومستوى ثقافتنا ، ولكن دوائر القضاء والتشريع ، لا تعترف بغير المتخصصين في القانون ، ولا تجيز لأي مثقف منا ، غير قانوني ، أن يتصدّى لإفتاء الناس في نصٍّ منه ، أو الدفاع به أو الحكم بمقتضاه .

ولا نعلم أن العمل القضائي في أي مجال ، نيابة ومحاماة وقضاء ،

أو تشريعاً وصياغة ورأياً وفتيا ، يُباح لغير المجازين في القانون .

ويتفاوت القانونيون بمقدار فقههم لأسرار نصوص القوانين ، إلى المدى الذي تقضي فيه محكمة عليا بالبراءة في قضيةٍ سبق الحكم فيها بالإعدام ، مستندة في نقض هذا الحكم على ملحظ دقيق في نص القانون ، فات القضاةَ الذين نظروا في القضية من قبل ، وأصدروا حكمهم فيها ...

ومن القضايا ما يحتاج إلى خبرةٍ طبية أو اقتصادية أو فنية لا عِلْمَ للقضاة بها ، فيندب الخبراء لفحصها وتقديم تقاريرهم عنها ، ويظل الحكمُ في القضية لرجال القضاء وحدَهم ، دون الخبراء من الأطباء أو المحاسبين أو المهندسين أو الزراعيين أو .. أو ....

• • •

والأمر أدق من هذا في القرآن الكريم ..

من حيث لا تصح قراءته ابتداءً ، لمن يتصدى لتلاوته أو تفسيره ، من المصحف مباشرة ، دون التلقي من شيوخ القراءة .

لأن القراءة في المصحف ، غير متروكة للاجتهاد كما يتصور عامة المثقفين ، وإنما هي علم دقيق له قواعده في الضبط والأداء . والمعنى يختل تماماً ، لا بخطأ في الضبط اللغوي أو الإعرابي فحسب ، بل بالوقف حيث ينبغي الوصل ، وبالوصل حيث ينبغي الوقف ، وقد يضيع سِرُّ التعبير بالتفخيم أو الإشباع أو المد أو القصر في غير مواضعه .

من هنا كان الحظر التقليدي على طلاب حفظ القرآن : « أن يأخذوه من مصحفي» بمعنى النهي عن أخذ القرآن ممن قرأه في المصحف ، ولم

يتلقه تلقيناً بالقراءة المشافهة على شيوخ القراءة ، فيغيب عنه وجه الصواب في التلاوة والأداء .

ولا أحدَ يحجُر على أي إنسان أن يقرأ من المصحف ، ولكن الحجْرَ أن يتصدى بهذه القراءة المصحفية لتلاوته في الناس ، فضلاً عن أن يتصدى لتفسيره وتأويل كلماته !

وقد نعلم أن نظم الدولة ، في أي بلد إسلامي ، لا تجيز لقارىء مصحفي أن يتلو القرآن في الناس ، في مسجد أو إذاعة أو مكتب لتحفيظ القرآن أو أي محفل عام ، فكيف بالتفسير لمن لم يصح قراءته ، فيسوق الآيات — في مقالات صباح الخير ثمّ في الكتاب المطبوع — سرداً متتابعاً بغير فواصل ضابطة للسياق محددة للمعنى ؟

وكيف يجوز في عاصمة إسلامية أن تنشر هذه القراءة المصحفية ، وفيها خللُ الوقف حيث ينبغي الوصل ، وفيها إفساد للدلالة بضياع ضوابط الابتداء والانتهاء للآيات ، تختلط به العبارات فلا يدري القارىء ماذا فهم المفسر الصحفي المصحفي من مقاطع الآيات وفواصلها ؟

• • •

وأحرى من وجوه الدقة في النص القرآن ، أن الكلمة لا تعطي دلالتها القرآنية بمجرد الرجوع إلى دلالتها المعجمية التي تتسع لمعان عدة لا يقبلها النص .

ومعروف لدارسي اللغة ، أن الألفاظ يختلف استعمالها من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى أخرى ، ولا وجهَ لأن نُحمِّل كلمة في أي نص ، دلالة لا يعرفها عصره ولا مجتمعه .

وإلا جاز لنا مثلا أن نفسر لفظ «قرية» في آية «وَمَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ» بدلالة عصرية على أبسط وحدة في التقسيم الإداري للمحافظات والمدن والقرى ، وهي دلالة يرفضها اللفظ القرآني رفضاً باتّاً ؛ وأن نفسر لفظ «ساعة» في قوله تعالى : «يُقْسِمُ المجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» بدلالتها الاصطلاحية على ستين دقيقة . أو كما قال المفسر الصحفي : (مجرد ساعة زمان ، وكأنهم كانوا في غفوة أو نومة عصارى بعد أكلة ثقيلة).

أن نفهم كل الأعداد في القرآن بدلالتها الرقمية المحددة في علم الحساب ، فتكون ليلة القدر خيراً من ألف شهر على التحديد ، لا تزيد عليها شهراً أو بعض شهر ؛ ويكون للمصطفى أن يستغفر إحدى وسبعين مرة ، لمن نزلت فيهم آية التوبة ، خطاباً له عليه الصلاة والسلام :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ».

والمفسر العصري لا يرى بأساً في أن يفسر لنا لفظ «يعشو» مثلا بلفظ (ينصرف) في آية الزخرف :

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ».

حين ندري من لغة القرآن ، فرقاً بعيداً أقصى البعد ، بين الأعشى والمنصرف ، فتفسير أحدهما بالآخر ، ليس إلا خبط عشواء !

ويفسر قوله تعالى لنبيه موسى عليه السلام :

«فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوىً»

بأن (المقصود بالنعلين هما النفس والجسد فلا لقاء بالله إلا بعد أن يخلع الإنسان النعلين : نفسه وجسده ، بالموت أو بالزهد ، والله يصورهما كنعلين لأنهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح في عالم المادة !) ص ١٠٤ .

وذلك ما لا تعرفه لغة القرآن ، ولا لغة العلم ، من أي سبيل !

• • •

وثالثة من وجوه الدقة في النص القرآني ، هي استحالة تفسير صيغةمن صيغه أو عبارة من عباراته ، مبتورة من سياقها الخاص في الآية والسورة، ومن سياقها العام في المصحف كله .

على نحو ما فعل المفسر العصري ، في استشهاده ببعض كلمات مبتورة من سياقها ، ليأخذ منها دليلاً فاسداً وشاهداً يحيله السياق .

كمثل عبارته في ص ٤٩ ، وقد تكررت في ص ١٤٥ :

(والله يقول عن كلامه،عن القرآن ، : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ »)

بتر الجملة من سياقها ، فحملها على كلام الله ، وإنما هي في المتشابه منه فحسب ، بنص الآية :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ »

ومثل استشهاده بقوله تعالى : « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » لدكّ الجبال يوم القيامة ، مبتورة من سياقها في قوم موسى :

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »

ولا علاقة لها إطلاقاً بدكّ الجبال يوم القيامة .

وكثيراً ما يتورّط المفسر العصري ، فيحمل آيتين أو أكثر على معنى واحد ، ويستشهد بها لأمر بعينه ، وتكون إحدى الآيات في سياق غير سياق الآية أو الآيات الأخرى .

كمثل سرده ثلاث آيات متتابعة — ص ٨٠ — في شواهد لما يبدو نعمة ، وقد يكون في الحقيقة نقمة .

وإحدى الآيات — التوبة ٥٥ — في منافقي المدينة الذين قعدوا عن الجهاد مع المصطفى في غزوة تبوك .

والثانية — المؤمنون ٥٥ — في سياق الحديث عن قوم موسى .

والثالثة ـــ آل عمران ١٧٨ ـ سياقها في الكفار من قريش !

ويستشهد ـ في ص ٩٠ ـ لتحرير النفس من الشهوات بايي : التوبة ١١١ ، والبقرة ٥٤ :

« إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ » .

فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ » ..

باتراً سياق الأولى في وعد الله للمجاهدين ، والأخرى في زجر عَبَدة العجل من بني إسرائيل .

ولا يمكن أن يجتمع المؤمنون المجاهدون ، والكافرون الظالمون ، في سياق واحد ، إلا عند من لا يفقهون .

وهذا الجهل بالسياق ، يتفاقم خطره إذا ما انتحل المفسر الصحفي لنفسه صفة المفتي ، فأفتى الناس في (الحلال والحرام) بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

كمثل فتواه بتعطيل حدود الله في السرقة إذا أعلن السارق توبته أو إذا سرق محتاجاً ، وفتواه المشهورة لمن ينظر إلى الجميلات العاريات في شوارع القاهرة ، (ويهتف بالقلب إعجاباً : الله ! ويقصد الخالق الذي صور ، فلا تكون هذه النظرة حلالاً فقط ، وإنما تُكتب لنا حسنة !) ص ٨٧ : :

ومثل هذه الجرأة على الفتيا ، بالحلال والحرام بتحريف كلمات الله

عن مواضعها ؛ ما نشره في (بوسطجي صباح الخير : العدد ٧٤٤) ١٩٧٠/٤/٩) رداً على قارىء استفتاه في إباحة تعدد الزوجات » :

(الواقع أن تعدد الزوجات للمسلم مشروط بشرط صعب ، بل مستحيل ، هو العدل ..... إنه الأمر الممكن الذي لا يقدر عليه أحد . إننا ما زلنا في منطقة الزوجة الواحدة ، والإباحة هي إباحة في الظاهر فقط) .

وجاز عند المفتي العصري ، اجتماع النقيضين . في الأمر : الممكن ، الذي لا يقدر عليه أحد .

وتورط ، كعادته ، في بتر الكلمات من سياقها الذي يلفت إلى تعذر العدل بين النساء ، وينهى الرجال عن الميل كل الميل مع الهوى ، ترفقاً بالمجفوة من النساء :

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً . وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً » — ١٢٩ ، ١٣٠

* * *

ورابعة من دقة النص القرآني ، تتصل بما يبيحه المفسر العصري لنفسه ، من وصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ، فيقول مثلاً : المعماري العظيم ، والمهندس الأعظم للكون ، (والله هو سائق القطار الذي تفوق قدرته ومهارته مهارة جميع السائقين) — ص ١٨٨ .

حين نتعلم ، نحن تلاميذ المدرسة القرآنية ، من مبادىء علم أصول الدين : « أنه لا يجوز أن يوصف الله سبحانه بغير ما وصف به نفسه » فإذا جاء في القرآن الكريم أنه تعالى : الغني والعليم ، لم يجز لنا أن نقول مثلاً : الثري المليونير ، والأستاذ العلامة العبقري ....

وإذا سمى الله تعالى نفسه بالملك ، فليس لنا أن نسميه بالقيصر أو الامبراطور أو الزعيم والقائد والرئيس !

وإذا قال تعالى إنه « ذُو العَرْشِ العَظِيم » لم يجز لنا أن نقول : ذو التاج والصولجان .

ويقول سبحانه : « يَدُ اللهِ فَوْقَ أيدِيهِمْ » فلا يجوز لنا أن نقيس عليه فنقول مثلاً : ذراع الله مع أذرعهم أو فوقها ...

وهذا ما يغيب عن العصريين فيما يتصدونَ له من الكتابة في القرآن والإسلام بغير علم ، فتجري أقلامهم بألفاظ وصفات لله تعالى ، ينبو عنها الحِسُّ القرآني ، كسائق القطار ، والمهندس فضلاً عن عدم جوازها بتاتاً في علم الأصول .

وشبيه بهذا ، تورُّطُ المفسر العصري في حديثه عن (المعمار القرآني ، وسيمفونية سورة الفاتحة) — ص ٧ ، ٨

ومن قبله تورط الزميل الشاعر « نزار قباني » في مثل هذا حين بدا له أن يكتب إحدى قصار السور القرآنية على نسق الشعر .

وفاته أن القرآن قد أصرَّ على نفي وصفه بالشعر ، رداً على زعم

المشركين أن محمداً شاعر ، وأن القرآن شعر . والله تعالى يقول :

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

« فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ . وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ » .

• • •

وأخطر من هذا كله ، أن يُفسر الدكتور العصري للمسلمين كتابَ دينهم ، بشحنة من الإسرائيليات ، جاهد علماؤنا طويلاً لتحرير فهمنا الديني منها مما دَسّه اليهود علينا ، حين تعذر عليهم أن يحرفوا القرآن كما حرفوا التوراة .

وبعد أن تأصل منهجنا العلمي ، في رفض تفسير القرآن بنصوص من إسرائيليات لم يتعلق كتاب الإسلام بذكرها ، يقول التفسير العصري ؛ رجماً بالغيب :

(« إن كل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من ضرب المثال ، وألوان من الرمز . وفي العهد القديم يصف أشعيا يوم الرضوان قائلاً : يضع رب الجنود لجميع الشعوب في هذا الجبل وليمة سمائن ووليمة خمر ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه » . وفي تراتيل القديس أفرايم : « ورأيت مساكن الصالحين . رأيتهم تقطر منهم العطور وتزينهم ضفائر الفاكهة والريحان . وكل من عف عن الشهوات تلقته الحسان في صدر طهور ») — ٦٧ .

ويفسر آية الدخان :

« فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ »

برؤيا يوحنا اللاهوتي :

(« ففتح بئر الهاوية فصعد دُخَان من البئر كدخان أتون عظيم . فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر . وهذا الدخان لا يقتل الناس وإنما يعذبهم خمسة أشهر ، وفي تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه ، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم » إنها ظاهرة طبيعية ، يقول عنها القرآن كما يقول يوحنا اللاهوتي) — ص ١٤٢ .

ويفسر الدكتور الصحفي آية الكهف في يأجوج ومأجوج ، تخميناً ، بحوار بين المارشال مونتجمري وماوتسي تونج ، عن المخاوف من غزو الصين للعالم ، بعد أن يصبح سكانها ألف مليون . ثم يستطرد من هذا التخمين فيقول :

(ومع هذا فإنا لو فتحنا الإصحاح العشرين من سفر الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتي عن يأجوج ومأجوج ، فإنا نراه يقول نفس المعاني ويشير نفس الإشارات : متى تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض . يأجوج ومأجوج ليجمعهم للحرب ، وعددهم مثل رمل البحر) — ص ١٤٥

ويفسر آيات القيامة في القرآن فيقول :

(ونجد في رؤيا يوحنا اللاهوتي صورة مشابهة للقيامة — في القرآن — يقول : ونظرت لما فتح الختم السادس وإذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس

صارت سوداء كمسح من شعر ، والقمر صار كالدم ، ونجوم السماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملتف . وكل جبل وجزيرة تزحزحا عن موضعهما) — ١٤٧ .

ويفسر قوله تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ » بما نصه :

(وفي ذلك يقول يوحنا اللاهوتي : ثم رأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة . لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد ...) — ١٥٠ .

• • •

فهل يتصور الدكتور المفسر ، أن فهمه للقرآن يكون عصرياً ، حين يفسره برؤيا يوحنا اللاهوتي وترانيم أفرايم ؟

فليعلم إذن ، أن يهود القرن الهجري الأول قد سبقوه إلى هذه العصرية منذ بضعة عشر قرناً ، ودسوا على الفهم القرآني شحنة من هذه الإسرائيليات التي يراها الدكتور مظهر عصرية ، ويراها المنهج العلمي رواسب مما أقحم على الفهم القرآني ، ما تزال ناشبة في عقلية من يتصورون أنهم علميون ، من أبناء عصرنا الذي اقتحم مجاهل الفضاء !

• • •

ووجد المفسر العصري سبيلَ الاقتحام لميدان التفسير سهلاً بالعدول

عن ظاهر النصوص القرآنية ، إلى مجـــازيات عصرية لم يسمع بها نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ، ولا عهد لنا بها في لسان العرب ولغة القرآن .

حين يعلم فقهاء النصوص ، أن تأويل الحقيقة بالمجاز لا يصح بغير قرينةٍ دالّة على قصدِ العدول عن ظاهرِ النصّ وأصلِ المعنى !

لِكَيْلا تَضِلَّ المقاييسُ

« فاسألوا أهلَ الذكرِ إن كنتم لا تعلمون »
(قرآن كريم)

« مَن تكلم في القرآن برأيه فأصاب ،
فقد أخطأ »
(حديث شريف)

حرص المفسر العصري على أن ينشر مع مقالات تفسيره بمجلة ، صباح الخير ، كلَّ ما تلقى من رسائل الترحيب والتأييد .

وعذره واضح ، في أن يلتمس من نشر هذه الرسائل ، ما يواجه به موقفي من قضية التفسير العصرى ، فيما نشرتْ لي صحيفة الأهرام .

وكذلك يُعذَرَ الذين خلبهم هذا الأسلوب الجديد ، لا يدرون مزالق التعثُّر فيه والضلال .

ولا أرى أن أشغل أمتي بجدلٍ عقيم حول هذا الخلاف ، بين من يريدون لها أن تفهم القرآن كما يبينه لها مفسر صحفي مُحدَث ، ومن يشغلهم فهمُه كما بينه نبيُّ الإسلام وفهمتْه مدرسة النبوة .

لكني لا أملك حقَّ السكوت على شبهة خطيرة تضل بها المقاييس وتختل الموازين ، فأدع الناس يقرءون ما نشرته المجلة لأستاذ جامعي — كان يشغل من بضع سنين ، كرسي الأستاذية للفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة — وأترك مقاله يمضي في الناس ، دون تعليق .

لقد تطوع الأستاذ الدكتور عثمان أمين ، فأفتى بحق الاجتهاد في تفسير القرآن ، لأيِّ عصري دون دراسة أو مؤهل . بل إنه بارك كل خطأ يحتمل أن يتورط فيه مثل هذا المفسر ، وقرر له الأجر من الثواب ، على أي خطأ .

وأنقل نص عبارته – من عدد المجلة رقم ٧٣٦ بتاريخ ١٩٧٠/٢/١٢– بعنوان « الاجتهاد في القرآن واجب على كل مفكر »

(فرأيي أن القرآن لم ينزل للمتخصصين ، وإنما نزل للعالمين . وأن « ابن عباس » ، وهو حجة التفسير في زمانه ، لم يدرس الدينَ في معهد ، ولم يكن يملك من المؤهلات إلا الفطرةَ السليمة ، والله يقول في كتابه : « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ » والدكتور – الصحفي المفسر– كما يتبين لكل قارىء منصف ، يملك هذه الفطرةَ السليمة ، وهو مشكور على هذه المحاولة ، فإن أخطأ كان له أجرُ المجتهد ، وإن أصاب كان له أجران) .

قرأتها ، فشعرت بأسى عميق :

القضية التي نحن بصددها ، تتعلق بتفسير القرآن ، فكيف ساغ الخلط بين التفسير ، وبين نزول القرآن للعالمين ؟

وكيف تصور ، أن الاجتهاد في التفسير مباح للعالمين ! كأنه لا يدري أن الاجتهاد في أي مجال ، إنما يباح لذوي الخبرة به والدراية ، أو « أهل الجهة » بتعبير سلفنا الصالح .

وعصرنا يؤمن بأن أصحاب التخصص ، هم الذين يجوز لهم الاجتهاد ، فهل كان الاجتهاد مباحاً لعامة الناس في تفسير القرآن والفتيا في أحكامه وشريعته ؟

الذي أجمع عليه الأئمة ، أن الاجتهاد في ذلك محظور على غير العلماء .

ويسري الحظر عليهم ، فيما هو من الغيبيات ، أو المتشابه . ويحظر عليهم التفسيرُ بمجرد الرأي ، دون استنادٍ إلى شاهد ، من صريح النصّ أو دليل القياس .

ونص عبارة الجلال السيوطي :

« أما ما يجري مجرى الغيوب ، كقيام الساعة ... وكل متشابه في القرآن ، فلا مساغ للاجتهاد في تفسيره ، ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف بنص من القرآن والحديث أو إجماع الأمة على تأويله .

« وأما ما يعلمه العلماءُ ويرجع إلى اجتهادهم ، فهو الذي يغلب عليه إطلاقُ التأويل . وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً ، فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهادُ فيه . وعليهم اعتمادُ الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي » [1] .

وسبق القولُ فيما اشترطوا في المفسر من شروط الأهلية ، فلم يتصوروا قط أن يتصدى للتفسير من أعوزته أدواته ، وجعلوا علوم العربية من علوم القرآن التي لا يجوز أن يجهلها مفسر . ونقلوا في ذلك كلمة الإمام مالك :

« لا أُوتَى برجلٍ غير عالم بلغة العرب يُفسر كلامَ اللهِ إلا جعلتُه نكالاً » .

ومن أئمة السلف ، من تشددوا في موقفهم من إباحة الاجتهاد في

---

١ الإتقان في علوم القرآن : ٢ – ٢١٦ .

غير الغيبي والمتشابه ، للعلماء أنفسهم . فألزموا المجتهدَ باعتماد الشواهد والدلائل ، حتى يتقى التفسير بمجرد الرأي ، وهو عندهم غير جائز . قالوا :

« ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي . والاجتهاد من غير أصل . قال تعالى : « وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » وقال : « وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ » . وقال صلى الله عليه وسلم : «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » [1] .

بمعنى أنه أخطأ الطريقَ إليه .

قال تعالى « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »

« فما ورد بيانه عن صاحب الشرع ففيه كفاية عن فكرة مَن بعده . وما لم يرد عنه بيانه ، ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده ، ليستدلوا بما ورد بيانُه على ما لم يَرِد » [2] .

وخلاصة أقوالهم في النهي عن التفسير بالرأي : أنه التفسيرُ من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير ؛ وتفسيرُ المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ؛ والتفسيرُ المقرِّر للمذهب الفاسد ، بأن يُجعَلَ المذهبُ أصلاً والتفسيرُ تابعاً ، فيُردَّ إليه بأي طريق ؛ والتفسيرُ بالاستحسان والهوى...[3]

بل إنهم لفتوا ، مع ذلك ، إلى خطر التفسير بالرأي ، مع صحة الطريق إليه . فقد يحتمل اللفظ معنيين ، فيحتاج حملُه على أحدهما

---

١ أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي .

٢ و ٣ الاتقان : ٢ / ٢١٦ .

« الى معرفة أنواع من العلوم : التبحر في العربية واللغة ؛ ومن الأصول ما يدرك به حدودَ الأشياء وصيغ الأمر والنهي والخبر ، والمجملَ والمبين ؛ والعمومَ والخصوص ، والمقيد والمحكم ، والمتشابه والظاهر والمؤول ، والحقيقة والمجازَ والصريحَ والكناية ؛ ومن الفروع مَا يدرك به الاستنباط .

« هذا أقل ما يحتاج إليه ، ومع ذلك فهو على خَطَر ، فعليه أن يقول : يحتمل كذا ؛ ولا يجزم ، إلا في مُحكَمٍ اضطُرَّ إلى الفتوى به ، فأدَّى اجتهادُه إليه » .

• • •

وأكاد أسمع من يرفض أن نحتج بهذه المبادىء المنهجية ، ننقلها من تراث أئمة السلف ، لنأخذ بمبدأ الأستاذ الجامعي في إباحة الاجتهاد لمن شاء وله أجره ، أخطأ أو أصاب !

وأقول : إن عصرنا لا يمكن أن يزدري مبدأ من مبادىء المنهج لأن عصوراً غابرة سبقت إليه . والدكتور عثمان أمين فيما أعلم . قد شغل بمنهج ديكارت ، وبما فهمه من منهج الشيخ محمده عبده ، وليسا من أبناء هذا الزمان ! ..

«وابن عباس» الذي احتج به لإباحة التفسير دون دراسة أو مؤهل ، هو ابن عم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وصاحبه ، وأحد كُتّاب الوحي .

فهل صحيح أنه كما قال الأستاذ (لم يدرس الدينَ في معهد ، ولم

يكن يحمل من المؤهلات للتفسير إلا الفطرة السليمة) ؟

الذي أعلمه ويعلمه تاريخنا ، أن ابن عباسٍ درسَ الدين الإسلامي في «مدرسة النبوة» وكان نبيُّ الإسلام نفسه ، هو معلمه في هذه المدرسة !

وكان يملك مؤهلَ الصحبةِ للمصطفى المبعوث بدين الإسلام ، ويملك معها : أهلية كتابة الوحي ، ونقاءَ عربيته ، وأصالةَ فصاحته ! فلم يكن بحيث يفوته العلم بالقرآن ، أو تغيب عنه أسرارُ لغته وبيانه ، أو يخلط بين المحكم منه والمتشابه ، ولا بين المطلق والمقيد ، والعموم والخصوص والصريح والمؤول ، والحقيقة والمجاز ...

وكذلك كان السابقون الأولون من الصحابة رضي الله عنهم :

تلقوا القرآن مباشرة من المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، ودرسوا الدين الإسلامي في مدرسة النبوة ، والتحقوا بأول معهد عرفه تاريخ الإسلام : المسجد النبوي في دار الهجرة .

وبصحبتهم للمصطفى ، كانوا المرجعَ الأول بعده ، عليه الصلاة والسلام ، في قراءة القرآن ، وترتيبه ، وسائر علومه ، كما أخذوها مباشرة عن مبلِّغ هذا القرآن .

وبالدروس التي تعلموها من المصطفى ، وحضروها في مسجد المدينة ، كانوا المراجعَ الأصيلة للسنة النبوية من : قول ، وعمل ، وتقرير ...

وبأصالتهم في الفصحى وعراقتهم في العربية ، كانوا معلمي جيل التابعين ، ومصدرَ توثيقٍ لنصوص الفصحى من عصر صدر الإسلام وأواخر الجاهلية ، حين احتاجت الأمة إلى جمع تراث العربية وتدوينه ،

كي يستنبط منه علماؤها معجم ألفاظ الفصحى وقواعد نحوها واشتقاقها ، وأساليب تعبيرها وبيانها .

ولم يكن الصحابة ، مع ذلك ، على مستوى متماثل من الدراية والفقه ؛ بل تفاوتت منازلهم وطبقاتهم .

في عملية جمع القرآن ، كانت صفوة من حُفاظهم وكُتاب الوحي منهم ، هي التي نُدِبت للعمل الجليل مع التفرغ والاختصاص .

وفي جمع أحاديث المصطفى — عليه الصلاة والسلام — كان علماء الحديث يشترطون لصحته : اتصال إسناده برواية العدل الضابط عن العدل الضابط إلى أن يصل الإسناد إلى التابعين ؛ فالصحابة ، عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وكانوا مع ذلك يميزون بين الأسانيد ، ولم نسمع قط أنهم سووا بين رواة الحديث ، بل الذي نعرفه من مبادىء علوم الحديث ، أنهم أنزلوهم منازلهم من العدالة والضبط ، بأدقّ الموازين للجرح والتعديل .

فكيف تختل مقاييسنا العصرية ، فنحتج لإباحة التفسير ، بأن «ابن عباس» لم يدرس الدين في معهد ، ولم تكن لديه مؤهلات للتفسير غير الفطرة السليمة ؟

كأن «مدرسة النبوة» ليست معهداً نعترف به لدرس الدين !

وكأن «المسجدَ النبوي» لم يعرفه التاريخ ، المعهدَ الإسلامي الأول ! وكأن صحبة المصطفى ، وكتابة الوحي ، وأصالة العربية ، لا تدخل في مؤهلات « ابن عباس » لتفسير القرآن !

• • •

القرآن نزل للعالمين . ولم ينزل للمتخصصين .

لكن تفسيره ليس مباحاً لكل الناس ، والاجتهاد فيه محظورٌ على غير العلماء .

بل إن قراءته ليست مباحةً للعالمين ، يقرؤه كل فرد باجتهاده ، وإنما أجمعت الأمة على قراءات سبع ، لأئمة من المتخصصين يفصلنا عنهم بضعةَ عشر قرناً .

وعلى تتابع الأجيال ، يلتزم المسلمون هذه القراءات ، لا يحيدون عنها باسم الحرية ، ولا يرفضونها بشعار (يسقط الجمود والاحتكار) !

* * *

والأمر كذلك في الفقه الإسلامي المستمد من نصوص القرآن والسنة وما يقاس عليهما :

الإسلام ديننا جميعاً ، والقرآن نزل للناس جميعاً .

لكن باب الفقه لم يكن قط ، ولن يكون أبداً ، مفتوحاً لكل الذين نزل لهم القرآن !

ولم يُترك الأمر فيه مباحاً لاجتهادِ غير الفقهاء ، ولا عليهم أن يخطئوا فيما لا يفقهون !

وإنما انعقدت الإمامة لأئمة أربعة من المسلمين : مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل .

جائزٌ أن يقول فيهم أستاذ جامعي محدّث ، مثل الذي قاله في ابن عباس :

(لم يدرسوا الدينَ في معهد ؛ ولم يكونوا يملكون من المؤهلات إلا الفطرة السليمة)

فاسمعوا أيها الناس :

الإمام مالك بن أنس ، الذي أجمع المسلمون على إمامته فما كان لأحد أن يفتي ومالكٌ في المدينة ، لم يصل إلى هذه المنزلة العليا من التخصص الفقهي — أو الاحتكار بمفهومه العصري الغريب — بغير دراسة مؤهلة .

ولم يجلس للفتيا والتدريس من تلقاء نفسه ؛ دون إجازة علمية من فقهاء زمانه !

بل تعلم في مدرسة ، وسار على منهج .

وتلقى من شيوخ انقطع لبعضهم سنين دأباً .

ثم لم يجلس من تلقاء نفسه للفتيا بما فهم من القرآن وحفظ من صحيح الحديث والسنة ، دون إجازة علمية من فقهاء زمانه : أهل العلم والفضل وجهة الاختصاص .

أما مدرسته ، فكانت «المسجد النبوي بالمدينة» وفي مكان منه حدده المؤرخون : الروضة الشريفة ، ما بين القبر والمنبر .

وفي هذه المدرسة يقول «ابنُ شهاب الزهري» أحد شيوخ مالك : « جمَعْنا هذا العلمَ من رجال في الروضة»

وعدّ من هؤلاء الرجال سبعة من فقهاء أهل المدينة المنورة .

على أن «مالكاً» لم يدخل هذه المدرسة إلا بعد أن تأهل لها في « مكتب تحفيظ القرآن » فأتم حفظه ثم أتقن تجويده . قراءةً على «نافع ابن عبد الرحمن» إمام أهل المدينة في القراءة وأحد القراء السبعة الأئمة !

وأما عن منهج دراسة مالك ، فكان فيما حدده مؤرخوه : يستوعب «كل ما يستعان به على فهم القرآن . من علوم العربية ، وسنن الرسول — عليه الصلاة والسلام — وأحكام القرآن ، وعلومه ، والسيَر والمغازي ، مع قدرٍ من الحساب والرياضيات ».

وأما شيوخه الذين أخذ العلم منهم : فمنهم :

« ربيعة بن أبي عبد الرحمن» الذي اشتهر بربيعة الرأي وقيل فيه : ذهبتْ حلاوةُ الفقه منذ مات ربيعة .

و «ابن هُرمز الأصم» الذي انقطع إليه مالكٌ سبعَ سنين لم يخلطه بغيره . وفيه يقول ربيعةُ الرأي : « ما رأيتَ عالماً قط بعينك إلا ذاك الأصمَّ ، ابنَ هرمز».

واشتهرت في بيئتنا العلمية الإسلامية ، وصية ابن هرمز لتلميذه مالك :

« ينبغي أن يورَّث العالم جلساءه قولَ (لا أدري) فإن العالم إذا أخطأ (لا أدري) أُصيبت مقاتله » .

ومن شيوخ مالك : « ابنُ شهاب الزهري» أعلمُ الحفاظ بالحديث .

و «نافع» مولى عبدالله بن عمر ، الملقب بالإمام العلَم ، وأحد رجال الإسناد في السلسلة التي تُعرَفُ في علوم الحديث بسلسلة الذهب .

وفيه قال تلميذه مالك :« كنتُ إذا سمعتُ حديث نافع عن ابن عمر ، لا أبالي ألا أسمعه من أحد غيره».

والإمامُ «جعفر الصادق» الذي تخصه الشيعة بأسرار التفسير ، وتنسب إليه كتاباً فيه كلُّ ما يحتاجون إليه من علم القرآن .

وغيرُهم كثير ، لا أحصيهم هنا عدّاً .

ونال «مالك بن أنس» إجازته العلمية من أهل الجهة ، أي أصحاب الاختصاص ، فكانت شهادتهم له مؤهلاً لأن يجلس في مدرسة «مسجد المدينة» للحديث والفتيا .

قال رضي الله عنه : « ليس كلُّ مَن أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور فيه أهلَ الصلاح والفضل والجهة ، فإن رأوه لذلك أهلاً ، جلس .

« وما جلستُ حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم ، أني موضع لذلك »

* * *

هل يكفي هذا المثَلُ ، إقناعاً بحرمة التخصص وكرامة العلم ، وإنصافاً لأئمة السلف الذين توهم الدكتور عثمان أمين أنهم لم يدرسوا الدينَ في معهد ، ولم يحملوا من المؤهلات للتفسير غير الفطرة السليمة ؟

أخشى أن يكون الأستاذ الدكتور مندفعاً في حماسه للتفسير العصري ، بسابق موقفي من كتابه في (الجوانية) حين أنكرتُ منه بدعة «التفسير الجواني للقرآن» في مقالٍ لي نشره الأهرام عقب ظهور الكتاب .

وأستغفر الله لي وله .

* * *

دِفَاعًا عَنْ مَنْطِقِ عَصْرِنَا وَكَرَامَةِ عُقُولِنَا

« وما لهم به من علم إنْ يتبعون إلاّ الظنّ وإن الظنّ لا يُغني من الحقّ شيئاً . فأعرِضْ عمّنْ تولّى عن ذكرنا ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا »

(سورة النجم)

نشرت « صباح الخـــير » كلمة لكاتب زميـــل من محرريها ، — وتعنيني هنا القضايا لا الأشخاص — يرجو فيها أن أغير موقفي من التفسير العصري ، (إذا أنا استلهمت في هذه القضية ضمير المفكر المشغول بمستقبل الإنسان ، لا عمامة المحترف المشغول بحماية مستقبله الشخصي ، واختصاصاته التي يأكل منها خبزه) .

وكأنما تصور السيد الزميل ، غفر الله لي وله ، أنني أحمي كرسي الأستاذية الذي أشرُف به في الجامعة ، من منافسة زميله المفسر الصحفي.

أو كأنه وهم أنني أخشى تنحيتي عن اختصاصي في الدراسات القرآنية وقضايا الفكر الإسلامي ، ليُندب لها المفسر الصحفي مكاني ...

ما علينا ...

ولننظر معاً في فتنة هذه العصرية المُدَّعاة والعلمية المغلوطة .

* * *

باسم العصرية ، أقول إن كرامة إنسان العصر تأبى عليه أن يأخذ العلم ، أي علم ، من غير أهله . وتنكر أن تروج فينا دعوة إلى إهدار قيمة التخصص ، وإنا لنعلم علم اليقين أن عصرنا ما حقق شيئاً من تقدمه العلمي الرائع إلا بإيمانه بالتخصص . وإصراره على وضع الحدود التي تحول دون استباحة أيٍّ مجال للمعرفة ، لغير ذوي الخبرة والاختصاص .

وإذا جاز لطبيب أو فلكي أو زراعي ، أن يفسر للناس القرآن بما تيسر له فهمُه منه ، جاز لمن يستطيع من علماء العربية وفقهاء الدين قراءةَ كتاب في الطب أو الفلك أو الزراعة . أن يفتي الناس بما تيسر له فهمه منها .

وإذا استباح كل عصري أن يفسر القرآن للناس برأيه واجتهاده دون علم أو مؤهل ، بدعوى أن القرآن نزل للعالمين ولم ينزل للمتخصصين ، ساغ أن نعطل وظيفة المفتي وقضاة الشريعة ، فلا يحتكروا فقهَ الإسلام وهو ديننا جميعاً !

وساغ بالمنطق نفسه ، أن نوفر على الأمة ، وهي مثقلة بأعباء التنمية وتكاليف معركة البقاء والمصير ، أعباءَ كليات : اللغة العربية والشريعة والحديث وأصول الدين والدراسات الإسلامية ، من حيث لا حاجة لنا إلى من يحتكرون التخصص في هذه العلوم أو يحترفون الفقه بها والفتيا فيها ، والعربية لغتنا جميعاً ، والإسلام دين الأمة كلها ، والقرآن نزل للعالمين !

بل يجوز أن نسد ذرائع الاحتكار والاحتراف ، فلا نسمح لفئة من علماء القانون أن يحتكروا القانون المدني ، وآخرين القانون الجنائي ، أو القانون الدولي ، أو الشريعة الإسلامية ، كيلا يحجروا على غيرهم من حملة إجازة القانون ، ويصادروا حقهم في حرية الحركة ، ويضيقوا في وجوههم مجال العمل .

ولكي نأخذهم بمنطق «عمومية الثقافة ، واشتراكية العلم ، وحرية العصر ، فلا يفكروا بعقلية من يدافع عن اختصاصاته الرسمية !

أي تزييف للعصرية يسمح بمثل هذا الإهدار لقيمة التخصص والمسخ لمفهوم الحرية والتقدم ؟

وهل تراانا نحقق عصريتنا ونأمن على مسيرتنا مع رواد الفضاء وغزاة القمر . إذا نحن تحررنا من منطق زمن مضى لم يكن يسمح لأي مسلم « أن يفتي » ومالك في المدينة ، ونادينا بسقوط هذا الجمود والاحتكار ، فأبحنا لمن شاء من العالمين الذين نزل لهم القرآن ، أن يفتح في إحدى المجلات العصرية داراً للإفتاء في الحلال والحرام ، تغني الناس عن استفتاء فقهاء الإسلام ، والاتجاه إلى دور الإفتاء الرسمية في الدول الإسلامية ؟!

باسم العلم أعلن رفضه لمن يتصدون للفتيا بغير علم ولا مؤهل ويخوضون في تفسير القرآن بعلوم عصرنا ، وليسوا من دارسيها ، ولا أقول من علمائها .

فإن قيل إن المفسر العصري يتحدث في هذه العلوم بمعارفه العامة ، قلنا إن أي طالب بالمدرسة الثانوية ، له مثل هذا الإلمام العام بعلوم العصر . ولا يعوز فقهاء العربية والقرآن ، هذا القدرُ من المعارف المتاحة لعامة المثقفين ، وليسوا مع ذلك بحيث يكتبون في التشريح مثلاً بمعارفهم العامة ، وبدعوى عمومية الجسم البشري الذي هو للناس جميعاً على سواء !

ولا أتردد في الجهر بأنه لا حرمة فينا لمن لا يحترم العلم ، بل تسقط كل حرمة له بمجرد خوضه فيما لا يعلم ، وجرأته على أن يقول : (أدري) فيما لا يدري !

قد أفهم أن يتكلم طبيب فيما يفهمه من آيات قرآنية يمكن أن

تتصل بالطب ، وأن يكتب خبير زراعي فيما يفهمه من آيات القرآن في النبات والفاكهة والزرع ولواقح الرياح .

وأن يلتفت خبير كيميائي إلى آية القدرة الإلهية في تسوية بنان الإنسان لا يشتبه ببنان غيره من ملايين البشر .

وأن يقف عالم جغرافي عند آية القدرة في البحرين يلتقيان : هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وبينهما برزخ لا يبغيان .

وأن يقف عالم فلكي عند آية القدرة في السماء رفعها الله بغير عمد ترونها ، وما في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من آيات لأولي الألباب .

قد أفهم هذا ومثله .

ولكن الذي لا أفهمه ، وما ينبغي لي أن أفهمه ، هو أن يجرؤ مفسرون محدثون على أن يخوضوا في كل هذا ، فيخرج أحدهم على الناس بتفاسير قرآنية فيها طب وصيدلة وطبيعة وكيمياء ، وجغرافيا وهندسة وفلك وزراعة وحيوان وحشرات وجيولوجيا وبيولوجيا وفسيولوجيا وأنثربولوجيا .

إلا أن أتخلى عن منطق عصري وكرامة عقلي ، فآخذ في المجال العلمي بضاعة ألفِ صنفٍ معروضة في الأسواق !

وإلا أن أتخلى عن كبرياء علمي وعزة أصالتي ، فأعيش في عصر العلم بمنطق قريتي حين يفد عليها الباعة الجائلون بألف صنف ، يروج لها ضجيجٌ إعلاني بالطبل والزمر ، عن كل شيء لكل شيء ، أو « بتاع كله» في فكاهتنا الشعبية الساخرة بالادعاء !

باسم العلم أرفض هذه الرِّدَّةَ العقلية التي ترجع بنا القهقرى إلى دهور غابرة، فتزين لنا أن نفكر بالمنطق الأسطوري الذي يتلقى فيه إنسانٌ عن ساحرٍ من الجن ، كلمةَ السر التي تفتح له أبواب الخزائن الموصدة وتبيح له كنوزها الخفية ، فتتصور أن من العصريين مَن يستأثر بكلمة السر ، من مثل :« افتح يا سمسم» فتفتح له خزائن علوم الدنيا والدين ، وتبيح له خفايا الغيب وأسرار الحكمة ، فلا يلبث أن يخرج على الناس وفي جرابه طرائف وغرائب من كل علوم العصر ، ومعها مكتشفات من مجاهل الميتافيزيقا ، ومـــا استأثر الله به من علم الغيب والساعة واليوم الآخر !

أرفض أن يسخر مفسرون عصريون بمنطقنا العلمي — نحن الذين تعلمنا أن نقول : «لا ندري» حين لا ندري — فيزينوا لنا أن نقبل تأويلات لهم يزيفونها بقناع العلم ، وأول ما يعيه تلاميذنا من مبادىء العلم ، رفضُه الرجم بالظن . وأول ما نلقنهم في منهج المعرفة ، هو أن القرآن حرر العقل الإنساني من غرور الخوض في الغيبيات بغير علم ، وإنما حسب المؤمنين منا أن يتوقفوا فيها عند الذي جاءهم به الدين الذي آمنوا به ؛ أما غير المتدينين ، فحسبهم أن يؤمنوا بالعلم الذي لا يبيح لأحد أن يخوض فيما لا يعلم ، ويحظر القطع بنفيٍ أو إثبات في مجاهل ميتافيزيقية لم يصل العلم إليها .

وأرانا اليوم نُواجَهُ في عصر العلم ، بمن ينتحلون الدراية بكل علوم الدين والدنيا ، ومن يخوضون في الغيب فيفسرون لنا آيات القرآن في البعث والقيامة بما لم يأت فيه نص ، ولا كشَفَ عن غيبه علم !

وتبلغ بهم الاستهانة بعقليتنا العلمية ، ومنطقنا العصري ، أن يتصوروا أن هذا مما يجوز في عصر العلم :

« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً . فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى » .

• • •

بَيْتُ العَنْكَبُوت

« مَثَلُ الذين اتخذوا من دونِ اللهِ أولياءَ كمَثَلِ العنكبوتِ اتخذتْ بيتاً وإن أوْهَنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون ، إن اللهَ يعلم ما يدعون من دونه من شيءٍ وهو العزيزُ الحكيم ، وتلك الأمثالُ نضربها للناس وما يعقِلُها إلا العالِمون »

(قرآن كريم)

أستأنف القول من حيث انتهى بي المقال السابق إلى رفض الامتهان لكرامة عقولنا ومنطق عصرنا ، بهذه الردّة العقلية التي ترجع بنا القهقرى إلى منطق العصر الأسطوري ، فتخايلنا بكشف المحجوب عن عالم الغيب ، وتدّعي امتلاكَ مفتاح السر لكل علوم الدين والدنيا والآخرة !

أو «بتاع كله» كما تقول العامة بفطرتها السليمة التي لم يفسدها غرور ادعاء العلم بكل شيء !

وأفرغ اليوم لبان المزلق الخطر ، الذي يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان بالفكرة السامة ، تنأى بهم عن فهم مدرسة النبوة للقرآن ، وتحملهم على الاقتناع بأن القرآن إذا لم يقدم إليهم أسرار التكنولوجيا والبيولوجيا والأنثربولوجيا ، والذرة والكمبيوتر والإلكترون ... فليس صالحاً لزماننا ولا جديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية ، ويقبله منطقنا العصري .

فماذا اكتشف المفسر العصري ، من أسرارٍ علمية لما (جاء على لسان ذلك النبي الأمي الذي لم يكن يعرف ، لا هو ولا قومه ولا عصره ، كلمة بيولوجيا وجيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأنثروبولوجيا) ؟
(ص ٤٨)

ماذا يقدم لعصرنا من تفسير علمي لذلك (القرآن المذهل ، أتى به رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة ... بدوي راعي غنم في بيئة بدوية من أجلاف البدو في صحراء جرداء مقطوعة الصلة بالحضارات والعلوم)؟
(ص ٢١٣)

ماذا يمن به على أبناء هذا الزمان ، من عجائب (أسرار هذه العلوم التي غابت حتى عن «دارون» لمجرد أنه لم يرَ يدَ الصانع الخالق المهندس وهي تهندس وتخلق)؟

(ص ٤٧)

اكتشف لغزاة القمر ، في آية يس :

« وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »

أنها (تشبيه حرفي للقمر الذي لا خضرة فيه ولا ماء ولا حياة) .

(ص ٥٠)

لنسمع بعد شهرين من نشره لهذا الاكتشاف ، أن العلماء السوفييت ما يزالون يدرسون ما يبدو لهم في الصور التي التقطتها «لونا» معالِمَ عمرانٍ وآثارَ حياة !

واهتدى إلى (شفرة فواتح السور ، مثل كهيعص ، طسم ، حم ، عسق ؛ مما لم يقل لنا النبي إنه يعلم له تفسيراً) .

(ص ١٩)

فكان تفسيره العصري لها : (أنها حروف لها معنى في ذاتها ، وكلمات لها سرها ومدلولها وإن غاب عنا فهمها : وهي علوم عليا سوف نصل إليها فيما بعد) !

(ص ١٩٥)

وكشف عن سر الخلق من « حمإ مسنون » : (أنه اتفاق غريب ودقيق مع اكتشافات العلم بعد ألف وأربعمائة سنة)

(ص ٥١)

ثم ترك للناس أن يفهموا ما شاءوا ، من اكتشافات العلم عن خلقنا من حمإ مسنون !!

واكتشف لما يشغل العصر من نظرية التطور ، تأويلاً لكلمات الله : « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » : أنه (هدى إلى مسيرة التطور حتى بلغت ذروتها في آدم)

(ص ٥٢)

وفي قوله تعالى في الإنسان : « ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » :

(أن ما حدث من انبثاق آدم من الماء والطين على مراحل تطورية في الأرض ، كان ردة وكان انتكاساً وعقاباً لخطيئة – حمل الأمانة – وقد جرى في الأزل قبل المرحلة الأرضية للوجود الآدمي)

(ص ٥٧)

وقدّم إلى عصرنا من قوله تعالى : « أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً »

أنه (لا تفسير لها إلا أن تكون الأرض كروية دوارة ، نصفها ليل ونصفها نهار ، فإذا جاءت الساعة فإن نصف سكانها يكونون في ليل والنصف الآخر في نهار) .

(ص ١٤٦)

تصحيحاً منه لفهم النبوة ، وقد جرى لسان العرب على القول : آتيك ليلاً أو نهاراً ، فلا يفهم منه إلا التوقيت الزمني الذي لا يتعلق بكروية الأرض الدوارة !

واكتشف لعصرنا من أسرار الرياضيات وقوانين الطبيعة في القرآن ، ما لم يهتد إليه أحد من عصر النبوة إلى ما قبل ظهور التفسير العصري :

(فمن التوحيد ، نشأت كل أعداد العلوم والمعارف)

(ص ١٩٣)

أما فلسفة العدد ، التي غابت عن مدرسة النبوة ، فيقدمها لنا من تأويل آية المعارج : « تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ».

بأن (معنى هذا أن أيام الله هي كما يشاء الله ، فإذا شاء يكون اليوم بألف سنة وإذا شاء يكون بخمسين ألف سنة . فهو ليس خاضعاً لزمنه مثلما نحن خاضعون ، وإنما هو يخلق زمنه . وهذا شرح فلسفي رفيع لمعنى الأبدية أو زمن من لا زمن له)

(ص ١٢٨)

ومن آية آل عمران :

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ »

استنبط المفسر العصري ما لم يخطر على بال أحد قبله ،

(من القوانين الإلهية التي نعرف الآن الكثير منها مثل :

قانون الضغط الأزموزي ، وقانون التوتر السطحي ، وتماسك العمود المائي ، والتوازن الكهربائي والأيوني في المحاليل ، وقانون التفاضل الكيميائي بين هورمون وهورمون فيكون أحدهما حاكماً على الآخر ، وقانون رفض الفراغ ، وقانون الفعل وردّ الفعل)

(ص ٩٨)

فأنّى للنّبي الأميّ أن يعرف هذه القوانين ، فضلاً عن أن يبينها للناس ، كما بينها هذا المفسر العالم ؟

وماذا تبغي الأمة من العصر العلمي ، أكثر من هذا السرد لقوانين الطبيعة والكيمياء ، من الذرة إلى الفلك ؟

وأضاف إلى علم عصرنا بأسرار الإلكترون :

(إنه محاسب في حركاته ، فما بال الإنسان العاقل وهو بالنسبة للإلكترون كالمجرة والفلك بالنسبة للإنسان ، وقد نفخ الله فيه من روحه فهو شيء عظيم وليس في هوان الذرة ولا الإلكترون).

(ص ٦٩)

وأضاف إلى فهمنا لرحلة الحياة تفسيراً عصرياً يلائم عقلية جيل التليفزيون :

(أنا وأنت وهو وهم ونحن ، كلنا مجرد صور تبرق وتختفي على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون ثم تتبدد وتزول عند انقطاع

التيار ... ثم تعود فتتجمع صور أخرى عند وصل الكهرباء ، ثم تعود فتزول هي الأخرى) .

(ص ١٨٣)

وقدَّم إلى علم الجراثيم والحشرات ، ما رآه يليق بعصرنا من رفض السببية بالتوكل : فإذا توكلنا عليه ، تعالى ، (فلن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا المرض ، لأننا أدركنا وحدة الفاعل ، وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله . الميكروب لا يضر ولكن الله هو الضار النافع ...

(ص ١٨٧)

وكان تفسيره العصري لآية النمل :

« قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ »

(أن إدراك نملة لسليمان أمر ممكن ، مثل إدراك سليمان لله)

(ص ١٣٣)

ولم يخطر على بالنا من قبل ، إلا أن النملة تحس بغريزتها موضع الخطر ، وتحاول تلقائياً أن تتقيه ، بهدى الغريزة وإلهام الفطرة !

واكتشف المفسر العصري لبيولوجيا الحيوان وديناميكا الصلب ، أن القرآن إذ يقول : « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً »، فذلك من الإعجاز العلمي (لأن العلم كشف مؤخراً أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر . وهي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن) .

(ص ٢١١)

ويعرف المبتدئون من طلاب العربية ، أن القرآن جرى هنا على لغة

العرب الذين أنثوا لفظ العنكبوت من قديم جاهليتهم الوثنية ، كما أنثوا مفرد النمل والنحل والدود ، فلم يقولوا في الواحد منها ، إلا نملة ونحلة ودودة ، وهو تأنيث لغوي لا علاقة له بالتأنيث البيولوجي كما وهم المفسر العصري ، و النملة أو الدودة أو العنكبوت ، قد تكون ذكراً كما قد تكون أنثى ! ...

وجرى لسانهم كذلك على تأنيث الشمس والأرض والسماء والدار والسوق ، وكل ما يعرف في المصطلح اللغوي بالتأنيث المجازي ، دون أن يتصور من له أدنى اتصال بالعربية ، أن التأنيث هنا يحمل على التأنيث البيولوجي !

وقبل أن ينزل القرآن بآيات :

« وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا »

« قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » .

« كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا » ،

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » .

كان أي عربي وثني « من أجلاف البادية » ينطق بها على التأنيث ، فلا نتصور أن في ذلك إشارة علمية إلى ما اكتشفه عصرنا من بيولوجيا الحيوان !

ثم تورط المفسر العصري من هذا الوهم ، إلى وهم أشنع ؛ فأضاع كلّ السر البياني للآية تضرب المثل لأوهن البيوت ببيت العنكبوت ، حين قرر ما وصفه بالحقيقة العلمية :

(وهي أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات ، وأقوى من بيت الحرير وأكثر مرونة)

(ص ٢١١)

وعلى هذا التفسير العصري ، لا يصلح بيت العنكبوت مضرباً للمثل على الوهَنِ ، لأنه ليس أهونَ من بيت الصلب ، أو من بيت الحرير اتخذته دودة القز !

وقريب من هذا ، تورطه في تشبيه صلة الإنسان بخالقه بالحبل السري :

(والشرك في الحقيقة أشبه بانقطاع الحبل السري الذي يفصل الصلة بين الجنين ومصدر حياته ... بين الإنسان والله)

(ص ٩١)

وقد يعلم الأميون منا أن الحبل السري يقطع عقب الولادة ، إيذاناً بانفصال الجنين عن رحم أمه ، وبدء حياته مستقلاً عنها . فهل يكون لنا بأميّتنا العلمية في التشريح ، أن نفهم بهذا التفسير العصري ، أن قطع الحبل السري يبت صلتنا بخالقنا ؟ وهل يكون لأبنائنا في كليات الطب ، أن يروا في انقطاع الحبل السري إيذاناً بالموت وبتّ مصدر الحياة ؟

• • •

نحن علماء النصوص وأساتذة التخصص ، نرفض هذا العبث بحرمة كتاب لا يحل لنا أن نفهمه إلا كما بيّنه الرسول المبعوث به ، عليه الصلاة والسلام .

فهل يقبل علماء الكونيات والطبيعيات هذه الرّدة العقلية التي تهيم في كل واد ؟

وهل يقبل علماء العصر ، أن يلغوا قانون السببية ، ويقولوا لأبناء هذا

الزمان لا تخافوا الميكروب والسم فالميكروب لا يضر والسم لا يؤذي ؟ ذلك ما لا أتصوره ...

ولا يتصوره معي أبناء أسرتي المتخصصون في الطب والهندسة والقانون والموسيقى والرياضيات والعلوم السياسية !

• • •

ثم ماذا عن الغيبيات ؟

المتدينون منا ، يؤمنون بها كما جاءت في الكتاب الذي آمنوا به .

وفي دراستنا المنهجية ، نلفت الطلاب إل أن العلم يرفض كذلك أن نخوض فيما لا علم لنا به .

ويأتي تفسير عصري ، يخايلنا نحن أبناءَ عصرٍ ما بعد القمر ، بعجائب وغرائب من علمه بالغيب ، وكشفه الحجب عما استأثر الله بعلمه ، وليس لدى العلم التجريبي مجال لأي قول فيه .

ومن دار الإفتاء العصرية في مجلة صباح الخير القاهرية ، صدرت بتاريخ ٧٠/٤/٩ ، فتوى المفسر الصحفي العصري بأن (كرسي الله هو قلب المؤمن ، والعقل هو العرش ، والجسد هو اللوح المحفوظ الذي يكتب الله عليه ، على الجينات الوراثية في خلية الجنين ، يكتب قدر المولود وحياته)!

والعالم العصري المفسر يقول لأبناء هذا الزمان : إن (في هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهوداً) .

(ص ١٢٢)

وأن النذير للضالين بعذاب جهنم : (مثل تخويفك لابنك حينما تحذره من إهمال نظافة أسنانه وتقول له : إذا لم تنظف أسنانك بالفرشاة فإن الفيران سوف تأكل أسنانك ... وبالطبع لن تأكل الفئران أسنانه) .

(ص٦٨)

وأن جنة الآخرة (هي درجة ومقام ، فيها كل ما نعرف على الأرض ولكن مع تفاوت هائل في الرتبة ، مثل التفاوت بين الزمن والأبد ، ومثل التفاوت الذي ذكرناه بين طعم قطعة سكر ، وطعم اللذة الجنسية الحادة بالنسبة لبالغ) .

(ص ٦٣)

وأن ناموس القيامة باختصار (هو تجلي الله بذاته) .

(ص ١٥١)

(وكل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من ضرب المثال ، والتقريب والرمز) .

(ص ٦٦)

وأن ملائكة العرش الثمانية في آية الحاقة :

« وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ »

(لعلها قوى كهرمغنطيسية هائلة ، ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم في فضاء الكون ؟) .

(ص ١٢٩)

وأن العلامة الأخيرة من علامات الساعة هي يأجوج ومأجوج . يرجم المفسر العصري فيها بالغيب ، فيربط حواراً بين الماريشال مونتجومري وماوتسي تونج ، عن تكاثر الصين واحتمال غزوها للعالم ، برؤيا يوحنا اللاهوتي ، ثم يعقب تخميناً :

(ما هذه الأمة التي عددها كرمل البحر ، والتي سوف تحتشد لتحارب العالم عندما تتم السنة الألف ؟ ولعله يقصد الألف الثانية ميلادية ، وباقٍ عليها الآن أقل من ثلاثين سنة) .

(ص ١٤٥)

فيا من قرأتم آية يأجوج ومأجوج ، أو سمعتموها تتلى عليكم من الكهف ، هل فهمتم من قريب أو بعيد احتمالَ كونها من أشراط الساعة ، مع صريح نصها أنها من خبر قوم غابرين ، في قصة ذي القرنين ؟

ويا علماء الرياضيات والطبيعيات ، هل يعني رقمُ ثمانية عندكم ، قُوىً كهرمغنطيسية ؟

وهل تُعلِّمون طلاب التشريح في عصرنا ، أن قلب المؤمن كرمي الله، وعقل الإنسان عرش خالقه ، وجسمه اللوح المحفوظ الذي يكتب على الجينات الوراثية في خلية الجنين ، قدر المولود وحياته ، ليقتنعوا بأن القرآن صالح لهذا الزمان ؟

أما نحن أساتذة العربية والإسلام ، فلا نجرؤ على أن نلقّى الطلاب أبناء هذا الزمان ، بمثل ذلك التفسير العصري لغيبيات يفرض علينا إيماننا والعلم ألا نخوض فيها بغير علم ، حتى لا يكون مثلنا « كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ »

بين الدراسة القرآنيّة والتفسير العصريّ

لن يفرغ للناس عجب إذا كشفت لهم عن وجوه التدليس في التفسير العصري للقرآن ، وبينت لهم ما فيه من ضلال الاقتباس بجهالة ، وعثرات النقل الغافل عن سياق النصوص المقتبسة ، وقيودها ودلالاتها .

في الفصل الأول من كتابي هذا ، خلاصة كتاب لي نشرته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٩ بعنوان : «مقال في الإنسان» دراسة قرآنية .

بعده ، في سنة ١٩٧٠ ، ظهر التفسير العصري مقالاتٍ في (صباح الخير) ثم فصولاً في كتابٍ مطبوع .

ولفتني من أول وهلة ، ما بين الكتابين من صلة مريبة ، على التفاوت البعيد بين دراسة قرآنية تخضع لأدق الضوابط المنهجية ، وبين تفسير عصري يهيم في كل واد .

وأستأذن القراء في أن أعرض هنا ما في هذا التفسير العصري على

دراستي القرآنية ، استكمالاً لوثائق هذه القضية الخطيرة .

* * *

وأبدأ المنهج :

في تفسير الألفاظ ، يردد الدكتور كلاماً مما قررناه من تعذر تفسير كلمة قرآنية بأخرى .

وهذا الأصل المنهجي الذي نلتزمه في الدراسات القرآنية ونازم بـــــه طلابنا في الجامعة ، لا ندري له موضعاً في تفسير عصري ، جرى صاحبه على أن يقحم على الآيات القرآنية تفسيراً لألفاظها في نص الآية ، فيأتي بها على هذا النحو ، مثلاً :

« إنا جعلنا الشياطين أولياء (أنصاراً) للذين لا يؤمنون» ص — ١٢٦

« ومن يعشُ (ومن ينصرف) عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين (مصاحب وملازم) » — ص ١٢٦

« قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري (عهدي) قالوا أقررنا» — ص ٦٠

« فلولا (فلو أنهم) إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (يائسون تماماً) »

« قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً (أجراً) على أن تجعل بيننا وبينهم سدا»

« آتوني زبر الحديد (كتل الحديد الكبيرة) حتّى إذا ساوَى بَيْنَ

الصَّدَفَيْنِ (جانبي الجبل) قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (نحاس مذاب) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً »

« إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (أي انشقت) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ

« وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (أي فجرت نارا)»

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا (لا تدفعكم الكراهية إلى تحامل) اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى »

« وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ (ولا يشق عليه حِفْظُهُمَا)

وذلك الخلط بين كلام الله وكلام البشر لم يجرؤ عليه أحد فيما أعلم . ولا عهد لنا بمثله في أي كتاب إسلامي . وقد كان علماؤنا يتشددون في إنكار مثله في رواية الحديث ، حفظاً لمتنه من أن يختلط بكلام للراوي ، ولم يخطر لهم على بال ، أن ذلك مما يمكن أن يقع في آيات القرآن .

• • •

وفي التأويل :

وأرى المفسر يردد بين حين وآخر ، كلمات متناثرة من ضوابط منهجنا الملتزم بصريح النص وحكم السياق ، فتبدو غريبة على أسلوبه العصري وطريقة تناوله .

من ذلك مثلاً ، أنه يردد ما لفتنا إليه من خطر التفسير الباطني والعدول عن ظاهر النص ، وما أوجبنا من ضرورة الالتزام بدلالات

الألفاظ القرآنية كما يعطيها الاستقراء الكامل لكل مواضع ورود اللفظ في المصحف ، والاحتكام إلى توجيه صريح السياق .

فيقول مثلاً في إنكار تأويل البهائية : (... وهو أمر يكشف خطورة التفسير الباطني للقرآن ، وخطورة إغفال ظاهر الحروف ومقتضى الكلمات والعبارات ، وكيف يمكن أن تؤدي أمثال هذه التفاسير إلى اقتلاع الدين من أساسه ... وهذا ينتهي بنا إلى موقف في التفسير لا بد من التزامه ، وهو الارتباط بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر).

(ص ١٢٢)

على حين يوغل بنا في التأويل ، إلى أبعد مما ذهبت إليه البهائية والباطنية : لقد أنكر على صاحب البهائية مثلاً أن يؤول غنم موسى بشعبه ؛ في الآية : « هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي » .

فهل يكون تأويل الغنم بالشعب ، أبعد شططاً من تأويل آية طه : « فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى » بما نصه في التفسير العصري (إن المقصود بالنعلين هما النفس والجسد ... والله يصورهما كنعلين لأنهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح في عالم المادة)

(ص ١٠٤)

ويفسر بشرية الرسول عليه الصلاة والسلام في آية الفرقان : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ».

بما نسبه إلى الصوفية من تأويل هذه البشرية (بأنه السر الإلهي ستر به سر النبوة في ثوب بشري عادي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، حتى لا يبتذل السر بالاظهار والاستهار)

(ص ١٠٢)

وفسر آية الزمر : « إنك ميت وإنهم ميتون »

بما نصه :(أفق إلى نفسك فأنت غير موجود ! أنت ظل ، شأنك شأن الظل . موجود على الأرض ما دامت الشمس في كبد السماء ، فإذا غربت لم يعد لك وجود . واختفت معك كل الظلال التي كانت تتطاول بأعناقها إلى جوارك)

(ص ١٨٤)

ويقول في تفسير «كلمة التقوى» من آية الفتح :

(وهي كلمة النذير بأن كل شيء إلى فناء ، وبأن كل هذا العالم ديكور من ورق اللعب ومدينة مزيفة مصيرها أن تفك وتعاد إلى علبتها...)

(ص ١٨٦)

ويفسر (شفرة) فواتح السور بقوله :

(وهي علوم عليا سوف نصل إليها فيما بعد)

(ص ١٩٥)

ويفسر آية العنكبوت :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »

فيقول فيما يقول :

(ولهذا السبب نفسه ، لعدم القهر والجبر أخفى الله نفسه في الإنجيل ، وأخفى نفسه في القرآن (؟!) ، لأنه لم يرد أن يلجمنا بالتجلي القاطع الفاصل فيقهرنا على الإيمان قهرا)

(ص ٣٧)

* * *

على أن ذلك كله ، ومثله معه ، لا يقاس بما جاءنا به التفسير العصري من عجيب التأويل لغيبيات عن حياة لنا سابقة قبل النزول في

الأرحام ، وعن شهود الجن والشياطين والملائكة ، وعن غيب الساعة والحياة الآخرة ...

وهي تأويلات نعرضها على ما يقابلها من دراستي القرآنية ، ونحتكم فيها إلى الكتاب المحكم ، لنرى مبلغ التزام المفسر العصري بما ردده من قاعدتنا المنهجية في (الوقوف عند حرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر).

وفي الموضوع :

كنت بحيث لا أشق على القراء بعرض مقارنة موضوعية بين عطاء هذه الدراسة القرآنية المنهجية ، وما يقابلها في التفسير العصري ، اكتفاء بأن أشير إلى مواضع المقارنة .

غير أن ما يأتي في دراستي مباحث مستقلة متميزة ، يتناثر في فصول الكتاب العصري مبعثراً مشتتاً :

فما كتبته عن الحرية والرق مثلاً ، جاء به الدكتور في فصل (لاكهنوت) .

والذي قدمته في «حرية العقيدة» جاء به موزعاً على ثلاثة فصول : (لاكهنوت ، رب واحد ، لا إله إلا الله)

وما قلته في مبحث « جدل في البعث » جاء بعضه في فصل (البعث) وبعضه في (إعجاز القرآن)...

وإذ لا سبيل لسواي ، مع هذا التشتت ، إلى أن يهتدي إلى مواضع الأخذ والمقارنة ، أجدني مضطرة إلى أن أستخلصها بنفسي ، بقدر ما يحتمله ضيق المجال المحدود لهذه المقارنة .

١ ـ الغيب :

حظر القرآنُ الخوض في الغيبيات بغير علم .

وحين أباح الأئمة من علماء السلف الاجتهاد في التفسير لأهل الفقه والدراية ، أخرجوا الغيبيات من نطاق الإباحة ونصوا على منع الاجتهاد في تأويلها ، وإنما حسبنا ـ كما بينتُ في الدراسة القرآنية ـ أن نتوقف فيها على ما جاءنا به الدين الذي نؤمن به .

وبينتُ معه أن العلم كذلك لا يجيز لنا الخوض في الغيبيات بغير علم ، فكل ما يقال فيها لا يعدو أن يكون حدْساً افتراضياً أو رجماً بالظن ، لا مجال فيه لنفي أو إثبات .

وتقرأ مثل هذا الكلام في التفسير العصري . عما في القرآن من (طلاسم من الغيب المحجب يحار فيها عقلنا ولا يملك لها نفياً ولا تأييداً)

(ص ١٢٥)

(والاجتهاد مباح في أمور الدنيا ، لكن القطع في أمر غيبي أكبر خطأ يتورط فيه قارىء القرآن ، فضلاً عن أنه ليس في مقدورنا) .

(ص ١٤٥)

(ولا نملك فيه إلا ذلك الخبر الذي أتانا به نبينا الكريم من لدن عالم الغيب) .

(ص ١٦٥)

ونراه مع ذلك التكرار لنص كلماتي في حظر الخوض في الغيبيات ، والاقتصار فيها على ما أتانا به القرآن ، يقتحم الغيب ويأتي بعجائب وغرائب من بدع التأويلات ، توغل بنا من حياة كانت لنا قبل النزول في الأرحام ، وتؤكد أن في هذه البشرية مَن كُشف له علم الغيب . وتقرر أن المفسر العصري (يكاد يضع يده عـلى الحقيقة) من غيب الساعة والآخرة .

• • •

وأبدأ بقصة الخلق ، وخلاصة ما أعطته دراستي القرآنية :

« تبدأ قصة الإنسان بخلق آدم ، أبي البشرية .

« ولا مجال هنا لجدل حول نظرية التطور وخلق آدم ، فآدم في النص القرآني هو الإنسان الأول الذي بدأ منه طور البشرية . والقرآن الكريم يشير إلى أنه تعالى قد « خَلَقَكُمْ أطواراً » ويلفت إلى مرحلة زمنية ، لم يكن الإنسان فيها شيئاً مذكوراً : « هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً »

« كما لا مجال للتعرض لما خاض فيه المفسرون من تفصيلات لكيفية خلق آدم من تراب أو طين : فحسب الإنسان منا ، لكي يؤمن بالقدرة الخالقة ، أن يلتفت إلى الأرض : ندفن جثث موتانا في ترابها ، فتتحلل عناصرها ذائبة في التراب الذي يتغذى الأحياء من نباته ومعادنه وسائر عناصره ... ولا يحتاج الإنسان إلى أكثر من هذا الالتفات ، ليدرك أننا خلقنا من تراب ، وإلى التراب نعود ، على المشهود المنظور والواقع الحسي المدرك » .

وفي التفسير العصري :

(فإذا قال الله : خلقناكم ثم صورناكم ... ثم اكتملت الصورة بتخليق آدم فقلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... فمعنى هذا أن آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين بزماننا ، وأياماً بزمن الله الأبدي . «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً» ، ومعناها أنه كانت هناك قبل آدم صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها : « هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً » إشارة إلى مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الإنسان يساوي فيها شيئاً يذكر) .

(ص ٥٢)

لكن هذه الخلاصة ، التي لا تبعد كثيراً عما قلتُ آنفاً ، تتوه في حشد من التأويلات لغيب مجهول ، كنا نعيش فيه قبل الآدمية ، وتفصل الحديث عن خروج آدم من طين المستنقعات ، ردة وانتكاساً وعقاباً على خطيئة !

وقصة الخلق عنده ، تبدأ بصفحات عن نظرية «داروين» في أصل الأنواع ختمها المفسر العالم باكتشاف (الخطأ الذي وقع فيه داروين في نظريته عن النشوء والارتقاء ..... لمجرد أنه لا يرى يد الصانع الخالق المهندس وهي تهندس وتخلق) .

(ص ٤٧)

ثم قدم لنا ، تأويله العلمي لقصة الخلق التي غابت عن داروين ، وغابت عن عصر النبوة ، وفهم النبي الأمي ، عليه الصلاة والسلام قال : (إن القرآن يزودنا بما هو أكثر من كل ما قاله العلم . فيطلعنا على

بعض الغيب . على ما حدث في الملكوت في الملأ الأعلى قبل الخلق الأرضي لآدم ، فيروي لنا مرحلة سابقة لهذا الخلق : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » .

(إن ما حدث من انبثاق آدم من الماء والطين على مراحل تطورية في الأرض ، كان ردة وكان انتكاساً وعقاباً لخطيئة سوف نفهم تفاصيلها)...

(ص ٥٥)

(وكان العقاب هو الطرد والإهباط من تلك الجنة إلى الأرض . والنزول إلى « أسفل سافلين » ، وهي هاوية التيه المادي ، إلى طين المستنقعات . هذه المرة إلى مجرد جرثومة في طين الأرض ، إلى نقطة بدء أولى ، من الصفر . وكان على آدم أن يخرج من هذا التيه المادي في انبثاق متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم البيولوجيا ، وعبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الأولى والأميبا ، صعداً إلى الإسفنج والرخويات والقشريات ... إلخ إلخ ، في رحلة قاسية وعبر صراعات دامية ...

(وأثاب الله آدم على توبته بأن هداه في رحلته الدامية وأخذ بيده خارجاً من رحم الأرض ومن طين المستنقعات حتى وقف منتصباً على قدميه محاكياً آدم الأول) .

(ص ٥٧)

هذا هو التصحيح العصري لنظرية «دارون» يردنا باسم القرآن إلى الأميبا والرخويات والقشريات ... تفسيراً لأسفل سافلين ، ثم يقرر بعدها في تأويل آية الانشقاق : « يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ » :

(هناك إذن مرحلتان من خلق آدم ، آدم المثال الذي خلقه الله في أحسن تقويم ليكون إلى جواره في الملكوت ، وآدم الأرضي الذي انبثق من ظلام المادة ومن رحم الأرض ومن أسفل سافلين ، حيث ألقى به مبعداً مطروحاً . وكان على آدم الأرضي أن يكافح ليحقق لنفسه التكامل الأول وأن يعود إلى أحسن تقويم .

(إن كلاً منا نحن ذرية آدم قد عاش هاتين المرحلتين) .

(ص ٥٩)

(وهي آيات كواشف ، تشير إلى مرحلة روحية عشناها في الملكوت قبل النزول في الأرحام ، وإلى أنه كان لنا ثمة وجود قبل الميلاد (!) شأننا في ذلك شأن آدم الذي بدأ حياته في أحسن تقويم ثم أنزل إلى أسفل سافلين) .

(ص ٦٠)

• • •

وأعترف مع المفسر العصري البيولوجي ، بأن هذا كله (مما لم يزودنا به أي علم) فهل هو مما قاله القرآن ؟

وهل هذا من (الالتزام بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهرة ، والتحرج من القول في الغيب بغير ما جاءنا به القرآن) ؟

إنه على أي حال ، ليس بأعجب من التأويل البيولوجي للشجرة المحرمة ، كما جاءت في قصة الخلق من الفهم العصري للقرآن :

(فإذا عدنا إلى الشجرة لنسأل ما هي ؟ أهي رمز أم حقيقة ، وجدنا أمامنا اختلافاً كبيراً ... وأنا أرى أنها رمز للجنس والموت اللذين تلازما في قصة البيولوجيا حينما أخذت الكائنات الحية بطريقة التلاقح

الجنسي لتتكاثر فكتبت على نفسها طارىء الموت .

(كان التلاقح الجنسي هو الشجرة المحرمة التي أكلت منها الحياة فهوت من الخلود إلى العدم ؛ وبالمثل كان زواج آدم وحواء هو زواج اثنين من الخالدين في الجنة . وفي مثل هذا الزواج لم تكن توجد وظيفة للنكاح والتلاقح الجنسي ، فالخلود حقيقة قائمة ولا حاجة للنسل لاستمرار الحياة ...

(ويقال إن شريعة الطهارة وقطع القلفة الزائدة من العضو التناسلي ، كانت الكفارة التي قضى بها آدم على نفسه بعد الخطيئة كمحاولة للخصاء ، تقززاً مما فعل ، ثم أصبحت تقليداً دينياً من يومها . ولا مانع من أن تكون الشجرة هي شجرة تؤكل بالفعل فتؤدي إلى إطلاق الهرمونات واشتعال الرغبة الجنسية ، ومن ثم تلقي بآدم إلى المخالطة الجنسية ، وتكون الآية صادقة حرفياً ومجازياً) .

(ص ٦٢)

الغريب حقاً ، أن المفسر العصري ختم هذه التأويلات القطعية لقصة الخلق وبيولوجيا الشجرة وكفارة الخصاء بقوله :

(ولا يمكننا القطع في هذه المسائل ، ويجب أن نقول إن الشجرة مازالت لغزاً ، وإن قصة الخلق مازالت من أمور الغيب لا نستطيع أن نقول فيها أكثر من الاجتهاد) .

(ص ٦٣)

وفي تأويل الجن والشياطين والملائكة :

لا موضع لمقارنة بين عطاء دراستي القرآنية ، وبين جديد التأويل العصري . فهما مختلفان تماماً . على أن المقارنة تجدي على بيان جوهر الفرق بين عقليتنا ومنطقنا نحن تلاميذ المدرسة القرآنية ، وبين عقلية صحفي علمي ومنطقه العصري في فهم القرآن وتأويله .

في دراستي القرآنية ، لم أزد على قولي في الجن :

« لفظ الإنس يأتي دائماً مع الجن على وجه التقابل ،

وملحظ الإنسية هنا ، بما تعني من عدم التوحش ، هو المفهوم صراحة من مقابلتها بالجن ، في دلالتها أصلاً على الخفاء الذي هو قرين التوحش .

« وبهذه الإنسية يتميز جنسنا عن أجناس أخرى خفية مجهولة لا تنتمي إلينا ولا تحيا حياتنا . وليس من الضروري أن يقتصر مفهوم الجن على ما ألفنا من إطلاقه على تلك الأشباح التي لا تظهر لنا إلا في تهاويل الظلمة وتصورات الوهم ، وإنما يتسع اللفظ — بدلالته الأصيلة على الخفاء ، ومقابلته للإنس — لأي جنس غير بشري يعيش في عوالم غير منظورة ولا مدركة ، وراء حدود عالمنا الذي نعيش فيه ، ولا يخضع للسنن المعروفة التي توجه حياتنا وتحكمها .

« وبهذا المداول الرحب ، تنتفي شبهة الخرافة التي تدفع كثيراً منا إلى رفض الاعتقاد في وجود الجن ، إذا قدرنا أن الكشوف العلمية الحديثة لا تنفي احتمال وجود جنس غيرنا ، يعيش في عوالم خفية كالكواكب . لا نزال نجهلها وإن لم نكف عن السعي إلى اكتشاف خفاياها ومجاهلها » .

* * *

أما الملائكة ، فقصارى ما قلته فيها ، يجده القارىء في مبحث : خليفة في الأرض .

وقد نجد منه في التأويل العصري ملتقطات مبعثرة بين (مخير أو مسير) و (قصة الخلق) عن تسخير الملائكة ، وتمرد إبليس وأمانة الإنسان ومهالك الغرور وابتلاء الآدمية بالخير والشر .

لكنك تجد معه الجديد المبتدع ؛ من مثل هذه التأويلات الغيبية التي لم تَجُزْ على عقليتنا :

والحقيقة أن الإيمان بالجن والملائكة ، قلباً ، هو دليل كاشف على نوع من التذكر الغامض لعالم القدس والملكوت ، وأنه إيمان دال على شيء وليس محدد تسليم خاو . ثم يروي لنا الله في القرآن أن الإنسان لا يُترَك لقرين الشر من الجن ، وإنما له قرين آخر من الملائكة يلازمه ويلهمه بالخير ، ويظهر هذا القرين الملائكي ليشهد يوم القيامة ويخبر عن صاحبه :

« وَقَالَ قَرِينُهُ هذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ »

* * *

فليتدبر القارىء سياق الآية التي استشهد بها للقرين الملائكي :

« لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ . وَقَالَ قَرِينُهُ هذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ . أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ »

هل في هذا السياق ، شهادة من قرين ملائكي لصاحبه الذي لازمه وألهمه الخير ؟

• • •

ويتابع المفسر العصري اجتهاده في تأويل الغيب : (ثم هناك ملائكة للعرش « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ »

(كيف تحمل ثمانية من الملائكة عرش الله ؟ أم هي ثمانية صفوف كل صف فيه ما لا نهاية من الملائكة ؟ أم هي ثمانية قوانين فيزيقية وميتافيزيقية ؟ ثم ما هو العرش ؟ أم هو رمز ؟ وما هو الكرسي ؟ إنه يوصف في آية الكرسي بأنه وسع السماوات والأرض ، فما بال العرش بأسره ؟ وكيف تحمله مخلوقات ؟ أم هي مخلوقات غير ما نعرف على الإطلاق ولعلها قوى كهرمغنطيسية هائلة ؟ ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم في فضاء الكون) .

(ص ١٢٨)

على أنه ما لبث أن كُشف له الحجاب عن ذلك الغيب كله ، فنشر في فتاويه بالمجلة رداً على بريد القراء : أن العرش الإلهي هو قلب المؤمن ، وأن الكرسي هو العقل ، أما اللوح المحفوظ فهو جسد

الإنسان يكتب فيه الله أو ملائكته أقدارنا على الخيبات الوراثية ! ويقدم معه تأويلاً لقوله تعالى :

« يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » .

وهو كلام محير يفهم من ظاهره أن الله مثلنا يكتب ويشطب ويراجع النفس . وهو غير صحيح ، والتفسير الأصح أن الآية دلالة على سعة المغفرة والرحمة بدرجة تصل إلى اللامعقول إلى محو القدر المقدور)

(ص ١٣٧)

* * *

ويقول في إعجاز القرآن :

(وهو معجزة لأنه يخبرك عن ماض لم يؤرخ ، ويتنبأ بمستقبل لم يأت ولم تقم عليه الشواهد ، ويدلك على علوم لم تعلم بعد ، وعن غيب محجب مطلسم لم يكشف إلا لقلة من المخصوصين من أهل التصوف)

(ص ٢٠٦ .)

فنفهم أن الدكتور عدل عما قرره من استئثار الله تعالى بعالم الغيب ، فلا مجال للاجتهاد فيه . ولعله كذلك وضع نفسه في هذه القلة من الصفوة التي كشف لها ما كشف من غيب مطلسم محجب ، إذ يقول في الرد على تأويلات صاحب البهائية :

(وإذا كانت حجته في هذه المزاعم هي أنه لم ير الملائكة ولا الجن ولا الشياطين ، فلماذا يلزم بها البشرية . وفي هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهوداً ؟ هل الأعمى هو الذي يلزم المبصر ؟ أم أن حجة المبصر الواحد تقوم فتلزم ملايين العميان الذين لا يرون الشمس إذا رآها مبصر واحد ؟

(إنها اختلاقات النبي الذي أراد أن يدخل منتدى الأنبياء بلا مؤهلات ، ويتسلل إلى مائدة الخالدين دون أن يمتحن ، فأنكر المعجزة والغيب حتى لا يطالبه أحد بأوراق اعتماده في السفارة الإلهية التي ادعاها) .

(ص ١٢٢)

• • •

ولا أسأله هنا :

هل تكون رؤية الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب ، أوراقَ اعتماد في السفارة الإلهية ، لمن رآها من هذه البشرية شهوداً ؟

بل أطيل التأمل في قوله :

(ونفهم من القرآن أن جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض في أية صورة ، ويحمل الوحي إلى أي نبي في أي عصر وبأية لغة) !؟

(ص ١٣٠)

ثم لا أملك إلا أن أتلو الآية المحكمة :

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً »

وأستغفر الله لي وله ...

• • •

وماذا عن غيب الآخرة ؟

الساعة التي لا يعلمها إلا الله ، والتي أكد القرآن أنها تأتي بغتة ، أدخلها المفسر العصري في مجال اجتهاده ، فجاءنا من غيب أنبائها ؛ ما استأثر بفصل كامل من كتابه .

وعلى عادته يبدأ بتقرير الأصل فيقول :(الساعة ذروة الغيب وعلمها محجوب عن الكل ، اختص الله به نفسه دون العالمين).

ثم لا يلبث أن يمضي على غلوائه ، فيضع رؤيا يوحنا اللاهوتي أمامه ، ثم يتجاوز أقصى المدى في الاجتهاد ، فيحدد موعداً محتملاً لقيام الساعة ، بيننا وبينه ثلاثون عاماً !

(ثم تأتي العلامة الأخيرة — من علامات الساعة — وهي يأجوج ومأجوج . وهي قصة غامضة كلها رموز . البعض «؟» يقول إن يأجوج ومأجوج هم نسل يافث بن نوح ، وإنهم هم الجنس الأصفر ، الصين وما في دربها ، عاشوا في آجالٍ وأحقاب من الجهالة ، والشعوب المتقدمة من حولهم تبني أسواراً من العلم والتصنيع .

(وذو القرنين وصهر الحديد والنحاس ، كلها رموز للعلم والصناعة التي كانت دائماً تحجزهم وراء حاجز الجهل والتخلف وتقيم حولهم سداً . حتى إذا جاء اليوم الموعود ونفضوا عن أنفسهم هذا التخلف وأخذوا بأسباب الصناعة وصنعوا الحديد والصلب والقنبلة الهيدروجينية وتكاثروا إلى آلاف الملايين وهدموا السد ولم يكن ذلك السد إلا رمز الجهل الذي يعزلهم عن العالم ساحوا في الأرض ونزلوا من كل حدب ينسلون وكانت الحرب التي تضع ختام الحياة .

(ومع هذا ، فإنا لو فتحنا الإصحاح العشرين من سفر الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتي عن يأجوج ومأجوج ؛ فإنا نراه يقول نفس المعاني ويشير نفس الإشارات :« متى تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض ... يأجوج ومأجوج ليجمعهم للحرب وعددهم مثل رمل البحر ») .

هنا ينتبه المفسر العصري إلى أن « الألف سنة » — وأقرب احتمال

عنده أنه بعد ميلاد المسيح عليه السلام – قد مضى منذ تسعمائة سنة وسبعين ، فلا يجد مانعاً من الاجتهاد في تأويله :

(ما هذه الأمة التي عددها كرمل البحر ، والتي سوف تحتشد لتحارب العالم عندما تتم السنة الألف ؟ ولعله يقصد الألف الثانية ميلادية ، وباق عليها الآن أقل من ثلاثين سنة . وهي أمور تثير الخيال ، وهي نبوءات تتداعى الواحدة لتؤيد الأخرى ، ولا نملك إلا الصمت ، فمثل هذه التأويلات لا يحق لنا أن نؤولها والوحي يقول لنا عن القرآن : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ») .

مرة أخرى يخونه سياق الآية ، في المتشابه من آيات القرآن ، لا في القرآن كله .

ومرة أخرى يردد القاعدة الأصولية في حظر الخوض في الغيبيات ، ومنع الاجتهاد في تأويلها بعد كل ما أوغل فيه من تأويل لغيب الساعة ، ورؤية الجن والشياطين والملائكة شهوداً .

ثم يستطرد فيضيف علامة لقيام الساعة ، بعد الأخيرة التي حددها بيأجوج ومأجوج – فينقل إلينا من سفر الرؤيا ، تفسيراً لآيات الانفطار والتكوير ، صورة مشابهة للقيامة ، في رويا يوحنا اللاهوتي .

وكانت نهاية المطاف عنده ، فيما كشف له من غيب الآخرة :

(حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس للنفس . تعالى ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا ! ! ... ولكن هذه المعاني تضيع في النظرة المتعجلة والقراءة السطحية والوقوف عند الحروف ، وعند جلجلة الألفاظ ! أكاد أجزم بأن ألفاظ القرآن بما فيها من جلجلة وصلصلة حينما تصف الجحيم ، إنما هي نذير حقيقي بعذاب نعذبه لأنفسنا بأنفسنا عدلاً

وصدقاً على رتبة استحقها كل منا بعمله . وأكاد أضع يدي على الحقيقة لا ريب فيها) . (ص ٨٤)

• • •

هكذا كاد يضع يده على الحقيقة في غيب الآخرة . وذلك غير مستبعد ممّن يرشدك من الإنجيل ، إلى الوسيلة التي تكشف لك ما كشف له من علم الغيب ، فيقول :

(ووعد الإنجيل :« اطلبوا تجدوا . دقوا على الباب يفتح لكم » على أن يكون دق الباب بجماع القلب والهمة وانقطاع البال وخلوص النية . وليس مجرد شقشقة لسان بدعاء تقليدي . وحينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على أحبابه وأوليائه فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهوداً وترى الغيب حضوراً ، وتسمع ما لا أذن سمعت) . (ص ١١٩)

• • •

٢ ــ حرية الانسان :

وأدع الغيبيات ، من قصة الخلق ، ومن الجن والملائكة ، إلى علم الساعة والآخرة ، لأتابع المقارنة الموضوعية بين دراستي القرآنية والتأويل العصري ، فأشير بوجه خاص إلى مباحث حرية الإنسان ، التي هي قضية الإنسان الكبرى في هذا العصر وكل عصر .

* * *

والمبحث الأول من مباحث هذه القضية في دراستي ، خاص بالحرية والرق ، وخلاصة ما هدى استقراء كل آيات القرآن فيه ، هو : « أن كتاب الإسلام لم يكتف في مواجهة مأساة الرق بتقرير المساواة بين الناس جميعاً وتحريم العبودية لغير الله وحده ، وهذا هو جوهر الدين كله .

وإنما عمد إلى إغلاق المنفذ الجديد من الاسترقاق من ناحية ، وإلى تصفية الرق القائم عصرَ المبعث من ناحية أخرى :

« فأما إغلاقه المنفذ للرق ، فالمعروف أن أسرى الحرب والقتال كانوا المورد الأول للرقيق . وتشهد آية محمد :

« فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوزَارَهَا »

تشهد أن كتاب الإسلام لا يجيز استرقاق أسرى الحرب ، وإنما

يخيّر المسلمين المنتصرين بين أمرين لا ثالث لهما : المن على الأسرى بإطلاقهم ، أو قبول الفدية فيهم . وإذ لم يقل الثالثة : وإما أسراً واسترقاقاً ، فقد سد المنفذ الأكبر للرق وأعفى الإنسانية من مورد له جديد متصل . وفي تصفية الرق القائم ، بدأ القرآن في العهد المكي المبكر فحضّ الإنسان على اقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنساني الحر ، وبيّن تعالى سبيل اقتحامها ، فكان « فَكّ رقبة » أول ما بدأ به ، دون تقييد هذا الفك بكفارة من ذنب : « فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ...

« ثم في العهد المدني الذي اتجهت فيه عناية القرآن إلى التشريع ، أخذ وضع الرق من هذه العناية ما يؤكد حرص الإسلام على تصفية الرق القائم . وفرض الإسلام على المؤمن تحرير رقبة ، كفارةً لعدد من الذنوب منصوص عليها في القرآن :

الحلف في الأيمان : المائدة ٨٩
القتل الخطأ : النساء ٩٢
الظهار : المجادلة ٣

كما شرع المكاتبة منفذاً آخر لتصفية الرق : النور ٣٣

وإذا كان الاسترقاق قد بقي في المجتمع الإسلامي على عهد الرسول فلست أشك بما أعي من سيرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وخلفائه الراشدين ، أن الرق كان في طريقه إلى التصفية لولا ما طرأ على الأمة الإسلامية ابتداءً من العصر الأموي من ظروف وأوضاع ضيّعت على الإنسانية ما أتاحه لها كتاب الإسلام لتخليصها من محنة الرق ».

• • •

المبحث كله جملة وتفصيلاً منقول إلى التفسير العصري ، وإن عدل به التدليس عن موضعه من قضية الحرية ، إلى فصل (لاكهنوت) !

وقد حاول أن يستغني – فيما نقل من كتابي – عن بعض ألفاظ ، وأن يعيد صياغة بعض الجمل بأسلوبه العصري ، فخانه الالتفات إلى دلالة السياق وأفسد المعنى . كمثل قوله :

(والحل الأمثل هو الذي نزلت به الآيات بألا يكون هناك مزيد من الاسترقاق . وكان مصدر الرقيق هم أسرى الحروب وكانت وصية (!؟) القرآن تسريح الأسرى أو طلب الفدية فيهم :« فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وإِمَّا فِدَاءً » بلا استرقاق . أما الموجود من الأرقاء فيتم تصفيتهم بالتدريج إذ جعل القرآن فك الرقبة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها (!؟) وجعلها وسيلة تطهير للنفس واقتحام لها « فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ » . بهذا أغلق الباب أمام مصدر الرق وعمل على تصفية الموجود منه . وإذا كان ما حدث في الدولة الأموية هو العكس فليس الذنب ذنب القرآن ، وإنما ذنب النظام الذي تفسخ ، وقصور الخلفاء التي تحولت إلى مسارح للمتع الحسية على الطريقة الفارسية) .
(ص ١٧٥)

وأترك للقراء أن يردوا هذا الكلام إلى مصدره . وألفتهم إلى مواضع التعثر والتدليس فيما حذف أو غيّر :

جعل تشريع المنّ والفداء وصيةً ، وهو في الآية أمر صريح !

وتورط فأفتى بأن (القرآن جعل فك الرقبة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها) هكذا على الإطلاق ، وذلك ما لم يقله القرآن ، ولا قال به مسلم يعلم أن الكبائر لا يكفر عنها فك رقبة . والذي في دراستي :

« كفارة لعدد من الذنوب منصوص عليها في كتاب الإسلام »

ونقلَ الفقرةَ الأخيرة من المبحث ، فاستغنى عن الإشارة فيها إلى عهد المصطفى وخلفائه الراشدين ، ولا غنى عنها . وتوسع في إشارتي إلى العصر الأموي ، فذكر (قصور الخلفاء الأمويين التي تحولت إلى مسارح للمتع الحسية على الطريقة الفارسية) والذي يعرفه من له أدنى إلمام بتاريخ الإسلام ، أن قصور الأمويين كانت في شغل شاغل بفتوح إفريقية وغزو الروم ، وبالقتال في جبهات : الشيعة والزبيرية والخوارج ، وأن غزو المدنية الفارسية لم يبدأ إلا مع الدولة العباسية التي قامت بسيوف الخراسانيين فمكنت لهم من مراكز السلطة فيها والنفوذ ، وفتحت الأبواب لغزو المدنية الفارسية الذي ظل الأمويون يصدونه تعصباً للعربية ، فكان اضطهادهم للموالي ، من الفرس بخاصة ، من أقوى الأسباب التي قضت على الدولة الأموية .

* * *

وفي حرية العقيدة :

قدمت الاستقراء الكامل لما في القرآن من آيات تحظر الإكراه في الدين وتقصر مهمة الرسول على البلاغ ثم نظرت في موقف الإسلام من رسالات الدين قبله ، فنراه لا يكتفي بالاعتراف لمعتنقيها بحرية التدين ، بل يلزم المسلمين كذلك أن يقروا بنبوة كل الرسل ، ديناً وعقيدة ، لا لمجرد التسامح أو المسالمة ، كما يلزمهم أن يؤمنوا بأن الإسلام مصدق لما بين يديه من رسالات الله .

ومع اعتراف الإسلام بكل الرسالات التي سبقته ، وتقريره أنه مصدق لها ، وتأكيده لمبدأ حرية التدين ..

فإنه في رياضته للبشرية على تحقيق وجودها الأسمى ، استشرف بها إلى الوحدة الجامعة التي تلتقي فيها الإنسانية المتدينة على الإيمان بالله ، لا تفرق بين أحدٍ من رسله ..

من أسفٍ أن عطاء هذه الدراسة المنهجية لحرية العقيدة ، قد تبدد في التأويل العصري ، فجاء شطرها الخاص بموقف الإسلام من رسالات الدين قبله ، في فصل (رب واحد ودين واحد)

وجاء الشطر الخاص بإبطال الكهنوتية في : (لاكهنوت) وهما في الدراسة متلازمان متكاملان ..

• • •

أما مبحث حرية الإرادة :

فيشق عليَّ أقسى المشقة ، أن ألمح أي وجه للمقارنة بين دراستي المنهجية لأعقد المشكلات التي واجهت مفكري الإسلام ، وبين ما يلقانا في (مخير أو مسير) بالتأويل العصري . من اضطراب التناول وخفة الأسلوب وطيش الأحكام .

وما ظنك بمن يتصدى لعقدة العقد في الفكر الإنساني ، بمثل قوله : (ولأن القرآن كتاب دين وليس كتاب فلسفة ، فإنه يكتفي بالومض والرمز والإشارة واللمحة ... فهي تلمح ولا تصرح حتى لا تلقي الناس في بلبلة . ولهذا السبب – لعدم القهر والجبر – أخفى الله نفسه في الإنجيل وأخفى نفسه في القرآن ، لأنه لم يرد أن يلجمنا بالتجلي القاطع الفاصل فيقهرنا على الإيمان قسراً . وضمّن آياته البراهين ، ولكنه لم يجعلها أبداً (!) ببراهين ملزمةتأخذ بالخناق وتقهر العقل) ؟ !

يفتح الله ...

لا وجه لمقارنة مثل هذا الكلام ، بعطاء دراسةٍ استوعبتْ أقوال الفرق الإسلامية في مشكلة الجبر والاختيار ، وعرضتْها على القرآن في استقراء كامل لآيات الإرادة فيه ، هدى إلى الفرق الجوهري بين مفهوم إرادتنا الكسبية الحرة ، ومفهوم الإرادة الإلهية التي هي حكم نافذ وقضاء مبرم ، يحكم علينا بما أردنا لأنفسنا ، تقريراً حاسماً للتبعة وتأكيداً لحرية إرادتنا وإلزاماً عادلاً بمسئوليتها ، وترسيخاً لثبات السنن الإلهية التي لا تتعلق إرادته تعالى بنقضها !

٣ ـ الوجود . . . والعدم :

يجد القارىء عطاء دراستي القرآنية ، في هذا المبحث من قصة الإنسان ، ومعه مبحث « جدل في البعث »

فهل يتصور أنه نُقِل كاملاً بكل شواهده ، إلى فصلين من التفسير العصري : أحدهما بعنوان (البعث) والآخر بعنوان (إعجاز القرآن)؟

مع عثرات الأخذ المختلس ، والتدليس المموه ، والبتر المشوه ...

حسبي أن أدع للقارىء أن يقابل على ما في دراستي القرآنية لجَدَل في البعث ، ما أخذه المفسر العصري على هذا النحو :

(فإذا لجأ القرآن إلى الجدل ، فهو يجادل في بساطة ويقيم الحجة في احكام . يقول عن الكافر (؟) الذي لا يصدق أنه يُبعث :« وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »

« أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيد » .

(وليبرهن على وجود الخالق لا يلجأ إلى صفحات من الحذلقة الفلسفية، وإنما هو مجرد سؤال يوقع به الكفار في إشكال :« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ » ؟ فإذا أراد أن يفحم ويلجم ألقى بمثل آخر .

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » .. وهو مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا (؟!) فمن يستطيع أن يخلق ذبابة على هوانها وتفاهتها . وإذا سلبتك الذبابة حياتك بمرض تنقله إليك فمن يستطيع أن يرد لك تلك الحياة . بل إنها لو سلبتك ذرة من النشا من طعامك فإن عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا لا يستطيعون استرداد هذه الذرة من أمعائها لأنها تتحول فوراً إلى سكر بفعل الخمائر الهاضمة . فما أضعف الطالب والمطلوب . ما أضعف عبقري الكيمياء وما أهون الذبابة وما أتفه ذرة من النشا . بهذه البساطة المعجزة الملغزة ، يتعرض القرآن لأعقد القضايا فيوصلها لأبسط الأذهان) . (ص٢٠١)

• • •

وهنا أيضاً خانه الحرص فيما حاول أن يغير من عبارتي ، فتورط في عثرات من التدليس :

نقل هذا الكلام من مكانه في (جدل في البعث) من مبحث الوجود والعدم ، إلى فصل إعجاز القرآن !...

وجعل آية يس :« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ » قولاً عن الكافر ، والآية في سياق الحديث عن الإنسان بعامة .

واستبدل بعبارتي في المثل القرآني « ما يزال بعد أربعة عشر قرناً منذ ضُرب للناس ، يتحدى كل جبروت الغزاة وعبقرية العلماء» عبارته : (وهو مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا)

ولا أدري أن العلم والتكنولوجيا ، تطورا منذ ألف عام ، أي في القرن التاسع الميلادي ، من صميم العصور الوسطى !

وما قلته في منطق البيان القرآني لدفع الشك في البعث ؛ يثبته « النظر الحر والبصيرة المميزة والتأمل الواعي ؛ دون أن يحتاج فيه الإنسان إلى ظروف خاصة أو وسيلة خارجية إن أتيحت لعدد من الناس في بيئة معينة أو عصر خاص ؛ فليست بحيث تتاح لكل إنسان على اختلاف المستويات الحضارية والعلمية »

أعاد صياغته وأضاف إليه ما لم أقله من صفة الإلغاز :(بهذه البساطة المعجزة الملغزة يتعرض القرآن لأعقد القضايا فيوصلها لأبسط الأذهان).

وجاز عنده أن توصف البساطة بالإلغاز ، وأن يكون الإلغاز سبيل توصيل أعقد القضايا إلى أبسط الأذهان !

• • •

وعليَّ أن أكتفي الآن بما قدمت من مقارنة كاشفة لعثرات التدليس بجهالة ، وأخطاء النقل الغافل عن المغزى والسياق .

فلأختم هذا العرض بنكتة لطيفة :

في دراساتي القرآنية ، يبهرني البيان المعجز وتأسرني ضوابط المنهج ، فقلما أتعلق بإيراد شعر .

غير أن «مرثية أبي العلاء» الدالية ، خطرت على بالي وأنا أدرس قضية الإنسان فجئت بأبيات منها في مبحث (العَرَض والجوهر) ، على ندرة ما أفعل .

ولم أعجب حين جاءت الأبيات نفسها في التفسير العصري الذي لا مجال فيه لشعر ، منقولة إلى أول فصل (لا إله إلا الله)!

مع تعثرٍ في نقلها أخلَّ بنسقها الشعري ، ومع خطأ نحوي أفسد المعنى ! والله على كل شيء شهيد ...

اللّهُمَّ فَاشْهَدْ

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عندِ غيرِ اللهِ لَوجدوا فيه اختلافاً كثيرا ».

• • •

أُخِذَ بعض الناس بألفاظ خلابة من التفسير العصري ، ترضي وجدانهم الديني . ويسأل سائلون منهم : ماذا علينا لو قبلنا منه مايرضي عقيدتنا . وتجاوزنا عما يخالطه من بدع التأويل وشحنة الإسرائيليات ؟

من واجبي أن أستخلص لهم من دراسّي للقضية ، ما أقدر حاجتهم إليه ليتدبروا ما يقدم إليهم باسم القرآن ومنطق العلم وروح العصر :

ليس لي أن أجادل فيما جاء في التفسير العصري من أن (النبي الأمي لم يكن يعرف لا هو ولا قومه ولا عصره ، معنى كلمة بيولوجيا وجيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأنتربولوجيا) (ص ٤٨)

ولا أخوض كذلك ، وما ينبغي لي ، فيما غاب عن المبعوث بالقرآن ، من محدث التأويل لما جاء في (ذلك القرآن المذهل الذي أتى

به رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة ، بدوي راعي غنم في بيئة بدوية من أجلاف البدو) .

وأقر وأعترف ، بأن النبي الأمي ، عليه الصلاة والسلام ، لم تُروَ عنه كلمة من مثل ما في التفسير العصري من رحلة آدم في طين المستنقعات ، وتطوره من جرثومة إلى أميبا فرخويات وقشريات ....

ولا ذكر في «سبع سموات» ألوان الطيف ودرجات السلم الموسيقي ، فضلاً عن أن يكون فهم حملة العرش يوم القيامة ، بالقوى الكهرمغنطيسية ، أو خطر له على بال وهو يتلو آية آل عمران : « وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرها » قوانينُ الضغط الأزموزي السطحي وتماسك العمود المائي والتوازن الكهربائي والأيوني بين المحاليل ...الخ

ذلك كله وأمثاله معه ، بعيد عن النبي الأمي وبيئته البدوية ..

فلنتركه للطبيعيين والرياضيين ليروا ما إذا كان شيء من هذا كله ، مما يصح في عقولهم ويجوز في منطق علمهم ؟

• • •

لكن ، ماذا عن أسرار البيان القرآني ؟

أيكون المصطفى والعرب الفصحاء الأصلاء في عصره ، لم يدركوا منه ما يدركه صحفي محدث ؟

وهل يصح في العقول ، أن يفهم مفسر عصري ، ما لم يفهمه النبي القرشي والعرب الفصحاء من لغة هذا القرآن وبيانه ، ومن ثم يتصدى للفتيا في أحكام الشرع بغير ما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعرفه الصحابة وأئمة الفقه الإسلامي وعلماء الحديث ؟

– يقول تعالى لنبيه المصطفى :

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون »

« وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

وفي التأويل العصري : (أنه — سبحانه — سوف يشرحه ويبينه في مستقبل الأعصر والدهور) .

(ص ٤٩)

(ثم إن الوحي يلقي عليه فواتح السور ما هو أشبه بالشفرة والألغاز مما لم يقل لنا النبي إنه يعلم له تفسيرا . وإنما هي بعض التحديات التي تحدانا بها القرآن ووعدنا بأن يأتي تأويلها في آخر الأيام) .

(ص ١٩٦)

ويقول تعالى : « كتاب فصلت آياتُه قرآناً عربياً لقوم يعلمون »

ويؤكد التأويل العصري عشر مرات ، أن القرآن يتحدث بالشفرة والرمز ، والألغاز المطلسمة (ص ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٨٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٦٥ ، ٢٠٢) .

ونتلو من الآيات المحكمات ، خطاباً للمصطفى :

« قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ، إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّني السوءُ ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »..

ونقرأ في التأويل العصري أن القرآن يخبر (عن غيب محجب مطلسم لم يكشف إلا لقلة من المخصوصين من أهل التصوف)

ويتبرع الدكتور المفسر فيقدم لك وصفة للحظوة : (وحينئذ يتفضل

عليك الله كما يتفضل على أحبابه وأوليائه ، فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهوداً وترى الغيب حضوراً وتسمع ما لا أذن سمعت) .

(ص ١٢٩)

• • •

أقول الحق : لقد تحيرت مع هذا التأويل العصري ، فحيث يقول مرات : إن القرآن ليس كتاب علم (ص٢٦) ولا كتاب فلسفة ولا سياسة : (ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٣٨ ، ١٦٧) .

يؤكد في مواضع أخرى :

(إن التوحيد نشأت منه كل أعداد المعارف والعلوم)

(ص ١٩٣)

(وهو — القرآن — يدلك على علوم لم تعلم بعد ... ويقدم إليك حكمة الأزل ودستور الحياة وفلسفة في الأخلاق والحكم واللاهوت وما وراء الطبيعة . وفي المعاملات والحرب والسلم و ...) .

(ص ٢٠٦)

(وفواتح السور علوم عليا سوف نصل إليها فيما بعد) .

(ص ١٩٥)

(وتتسابق العلوم فلا تكاد تلحق بأذيال القرآن) .

وحيث يقول إن الاجتهاد في أمور الدنيا مباح ، لكنه في أمر نبيي (أكبر خطأ يتورط فيه قارىء القرآن ، فضلاً عن أنه ليس في مقدورنا) .

(ص ١٤٥)

يؤكد غير مرة ، أن في هذه البشرية من عَلِمَ الغيب شهوداً ،

ويلقانا بتأويلات موغلة بنا في مجاهل من حياة كانت لنا قبل النزول في الأرحام ، إلى غيب الساعة واليوم الآخر .

وحيث يشهد أن نبينا عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين .

يقول في موضع آخر : (إن جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض في أية صورة ويحمل الوحي إلى أي نبي . في أي عصر بأية لغة) .

• • •

ألا ليت الدكتور أخفى ما كشف له من أسرار غيبية وفتوح ربانية ، وسلك مسلك الصوفية الذين قال فيهم :

(ويُخفي الواحدُ منهم كراماته كما يُخفي عورتَه ، لأنها السِرُّ الذي بينه وبين ربه وعلامة المحبة والخصوصية والقرب . وما بين المحب والمحبوب لا يصح إفشاؤه وابتذاله . وقانونهم : الذي يتكلم لا يعرف ، والذي يَعرِف لا يتكلم .. وما أندر هؤلاء الربانيين في هذا الزمان !) .

• • •

وأرانا بعدُ ، في حاجة إلى تحرير مفهوم الإيمان ومنطق العلم ، لكيلا يلتبس علينا فيهما حقٌ بباطلٍ ....